

الفهرس

1 - فاتحة المقالات

- 1 - ليس البر... ولكن البر... ..7
- 2 - التصفية قبل التربية9

2 - أسئلة تبحث عن أجوبة في فقه الزكاة والإحسان

- 3 - كيف نفقه شهر رمضان13
- 4 - لماذا لا نزكي إلا في رمضان؟13
- 5 - من ثقافة الشحادة إلى ثقافة الكرامة16
- 6 - إقراض الفقير شبكة خير من منحه السمكة19
- 7 - مجالات جديدة للزكاة والصدقات20
- 8 - لماذا نضرب النصوص الكلية بالجزئية؟23
- 9 - أفلا ننشئ مؤسسات للصدقات الجارية24
- 10 - تفتير الصائم وبضعة أسئلة26
- 11 - مفهومنا للإحسان مفهوم متخلف29
- 12 - المفهوم الإسلامي للإحسان31

3 - وظيفة العبادة شحن الإرادة: الصوم نموذجاً...

- 13 - سؤال هل يقترب منه التريويون؟33
- 14 - النموذج الأعلى والنماذج الدنيا35
- 15 - عندما يدور المولد، ولا ينتج ضوءاً37
- 16 - الإسلام عقيدة متكاملة كيف تحول إلى قطع متناثرة39
- 17 - ثقافة الخوف والاضطراب41
- 18 - ثقافة اللامبالاة43

- 19 - رمضان موسم ولكن لمن؟ 46
- 20 - أركان الصوم وأركان الحياة 47
- 21 - وعاظ المساجد وسوء توظيف أحاديث الترغيب والترهيب .. 48
- 22 - النموذج الأعلى للصائمين 50
- 23 - النماذج الدنيا 51

4 - الوحدة العضوية للشريعة: الحج والعمرة نموذجاً

- 24 - وظيفة الحج 55
- 25 - عندما تؤثر النوافل الروحية على الفرائض المدنية 56
- 26 - علم الاقتصاد ألا يقيّم نوافل العمرة والحج 58
- 27 - كل عمل ينفع الأمة فهو من العبادة 59
- 28 - ما بين أركان الصلاة والحياة من الصلات 61
- 29 - لماذا ضعف المؤمن وقوي الكافر؟ 63
- 30 - هل تعلل أحكام الشريعة؟ 65
- 31 - فقهاء وفقه الصحابة 68
- 32 - خطر التبرير الديني للإغراق الروحي 70
- 33 - النموذجان: الفضيل وابن المبارك 72

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

1 - فاتحة المقالات:

1 - ليس البر... ولكن البر...

الحمد لله الذي أنزل القرآن، منهجاً لصلاح العباد في المعاش والمعاد، والصلاة والسلام على محمد الرسول الذي بلغ الرسالة، وعلى صحابته الذين كانوا نموذج الإسلام، وعلى تابعيهم (بإحسان) الذي وصلوا البناء، وأشادوا حضارة الإيمان الذي أنتج العمران، التي لم يبق لنا اليوم منها إلا الأطلال.

فاليوم نقف حيارى، أمام التحدي الحضاري المدني المقتحم، الذي يحاول أن يذنبنا ويحتوينا ويهيمن علينا، إن لم نقاومه باستيعابه أولاً، ثم تجاوزه والمشاركة فيه ثانياً، كي نتحول من أطراف إلى مركز، ومن تبعية إلى صدارة، ومن استهلاك إلى إنتاج.

فكيف نقاوي ونقاوم؟ معتمدين على ديننا الذي ينفذنا من شقاء الدنيا والآخرة، وخطاب الدين قد حُرّف عبر القرون، فبعد أن كان يوّد الحيوية المدنية والنهوض، في الرعيّل الأول من الصحابة، أمسى يبرّر الهبوط وينتج النكوص. واستقر في الوجدان الجمعي، مقصوراً على الشعائر الروحية والطقوس أو يدعو إلى أركان الدين الروحية وفرائضه، دون أن يحقق وظيفتها، في شحن الذهن والوجدان، لإنتاج السلوك المدني الفعال القويم.

أو يبحث على تعليم القرآن وحفظه، وبناء المساجد والمدارس (التي

تسمى دينية وإنتاجها لا يدل على الوعي بشمول الدين). ويغري بنوافل القيام والصيام، والأوراد والأذكار، ويحث على الزهد (السلبى) في الدنيا، ويعتبر ذلك سفينة النجاة في الآخرة.

ويترك ميدان النجاح المدني الدنيوي، للخطاب (اللائكى) والعلماني، وكأن الدين لا دور له، في إنتاج نعم التنمية، وما فيها من قيم الإبداع والاختراع، وكأن الدين لا دور له في تعليم التقنية والثقافة المدنية، ولا في حفظ الاقتصاد والعلوم، ولا في بناء مؤسسات العدل والعمران والنظام.

فهل هناك قلة في نصوص العبادات المدنية: إدارية وعمرانية وحضارية، مقابل وفرة في نصوص القيم الروحية؟ إن كان ذلك فإن القلة في النصوص الجزئية، لا في النصوص الكلية، فليس ثمة فراغ في التشريع، لأن هذا وذاك كلاهما من فرائض الدين، فالعقيدة الإسلامية شطران: شطر روحي وآخر مدني. الشطر الروحي هو أركان الإسلام الخاصة، التي لا يصير الإنسان مسلماً من دونها وأركان المدنية، هي أركان الحياة، التي لا بقاء لأمة من دونها ولا حياة.

أولاً ينبغي لنا إذن من فقه مقاصد الشريعة الكلية قبل فقه الجزئيات، لنذكر أن العقيدة سطران، ونوافل العبادة الروحية، ليست أفضل على الإطلاق من فرائض التقنية والتنمية والعمران، وأن المسألة نسبية. ولنذكر أن للعبادات الروحية الواجبة والمندوبة دوراً (عضوياً) في إنكاء الفعالية المدنية.

فالشريعة كالجسد الواحد، لا يكون كائناً حياً دون توازن وتناسق. ولكل عضو وظيفة، وقيمة العضو بقدر وظيفته، فهي نسق مترابط العلاقات، متكامل الوظائف كأعضاء الإنسان، إذا انتفخ عضو فيه

انشل آخر، وإذا ضمّر عضو منه، فلن يكفي امتلاء آخر.
والمعضلة الحضارية اليوم جاثمة، لا تحل بفقّه التوازن وحده،
فالتوازن مطلوب في الفترات الطبيعية، أما في الفترات الاستثنائية،
فلا بد من إعمال قواعد فقّه الأولويات، بتقديم الضروري على
العادي، والرئيسي على الثانوي والأهم على المهم.
﴿ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرّ من
آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وءاتى المال على حبه
ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب
وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في
البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾.
ما معناها؟ ليس البرّ توجيه الوجه إلى القبلة في صلاة طقوسية
شكلية، بل هو إقامة للصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتأمّر
بصالح الأخلاق الروحية والمدنية معاً. فهناك صلاة طقوسية باهتة
خاملة، وهناك إيمان طقوسي، هو القيام بحركات شكلية، ليس هذا من
البر وليس من الإيمان، الإيمان إذن نسيج روحي مدني متشابك متماسك،
هذا الإيمان هو الصلاة، والزكاة والصدقات والتبرعات وتفقد ذوى
الحاجات، والوفاء بالمواعيد، وصبر العزيمة على المشقات، فهذا هو
مقتضى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر، وهؤلاء
الذين يجسدون النسيج هم المؤمنون الحقيقيون الذين صدقوا.

2 - التصفية قبل التربية:

ومن أجل ذلك ألا ينبغي تفكيك الخطاب الديني الشائع، الذي رسخ
في المجتمعات الإسلامية؟ وفحص مكوناته وعناصره، لإدراك الثابت

من المتحوّل، والقرآني الإلهي من التراثي البشري - الذي صيغ في فترات اختلال المعايير الدينية، أي بعد عصر الراشدين -، وإدراك الفجوة بين قدسية التنزيل، وبشرية التأويل، وبين معيارية التطبيق في العصر الراشدي ونسبته في عهود الاختلال الديني، على ضوء فهم النصوص الجزئية في إطار الكلية، في مدار فقه المقاصد الشرعية، من أجل تركيب فقه حضاري جديد، يهدي إلى النجاح في الدنيا والنجاة في الآخرة معاً، ويدرك أن حسنة الآخرة لا تكون على أنقاض حسنة الدنيا، بل هما مترابطتان، لا تتحققان إلا بالإرادة المتوقدة، التي تتجسد بالحركة الوثابة، كما قال الخبير البصير «ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن، فلنحييّه حياة طيبة»، فإذا صح الاتجاه إلى الدار (المقر) الأخرى، فلا بد من عمارة الدار (الممر) الأولى. وبذلك يتناغم شطرا العقيدة الروحي والمدني.

أجل فبالإرادة الفعالة والعمل الناجح معاً، لا بالنية المجردة من العمل الناجح، يكون النهوض والخلاص. ويكون التوفيق والبركة، كما قال تبارك وتعالى «إن يريدوا إصلاً يوفق الله بينهما»، فجعل الله التوفيق الرباني مترتباً على العزم الإنساني.

ولن تبرأ ذمة الطبيب، ما دام طبه الوقائي يجعل السليم عليلاً، وعلاجه الدوائي يمنح المريض شهادة وفاة. وإن كان من أهل الاختصاص أو كان من أهل الصلاح والإخلاص. من الضروري أن يكون الفقيه مخلصاً، ولكن إخلاصه لن ينفعنا إذا لم يقم لنا فكراً يحل معضلتنا، ومن الضروري أن يقصد الفقيه بعمله النجاة من النار، ولكن نجاته من النار لن تشفع لنا في النجاة من نار الدنيا ولا الآخرة، إذا لم يقم لنا فكراً يفك الارتباط بين الرقي الروحي والمدني.

أما أن لنا أن نكتشف أن ضعفنا السياسي والاجتماعي إنما هو
تربوي؟ أما أن لنا أن ندرس نتائج التربية السائدة؟
النتيجة مؤشر يقول: أعد التجربة، هناك خلل في تشخيص الوباء
أو في تركيب الدواء.

وهذه المقالات خطرات من الأسئلة ومحاولات من الأجوبة، استفادها
الكاتب من ما قرأ ورأى، وحاول أن يفيد ويستفيد، فإذا وجد القراء شيئاً
من الصواب أو أشياء من الأغلط، فهذا أمر طبيعي يدل على أن لهم
دوراً ينتظرهم، فلا بد من حوار مفتوح بين القارئ والمقروء، ويكفي
الكتاب وظيفة أن يقدر على إثارة الحوار، فصواب الأفكار لا يتبلور إلا
بالحوار، والصواب يمكن أن يتحول إلى أفعال، الأخطاء تنكي التحدي
في المتلقي، لينتقل من دور الاستقبال إلى الإرسال، فمن السؤال قد ينبثق
الجواب، ومن الخطأ تجربة قد تقود إلى الصواب.

فهذا المأزق الحضاري، لن يكتشف طريق النجاة منه اختصاص
محدد أو متخصص مفرد، بل لا بد فيه من اجتهاد جماعي، من المعنيين
بالرؤى المستقبلية، الذين يرون أن المشكل الذي ينبغي صرف الأولوية
له اليوم، هو السقوط الحضاري، وأن معالم النهوض، تتطلب كل جهد لا
ينحصر بتخصصه أو مذهبه أو طائفته أو إقليمه أو لغته أو جنسه،
ليسعى المؤمنون لإدراك ضالتهم، قبل فوات الأوان.

أبو بلال عبد الله الحامد
الرياض 1419/2/20هـ

2 - أسئلة تبحث عن أجوبة

في فقه الزكاة والإحسان

نشرت في جريدة الحياة (اللندنية) 19 رمضان/1418هـ - 17 يناير/1998م

3 - كيف نفقه شهر رمضان؟

شهر رمضان الكريم موسم من مواسم الطاعة والعبادة، تضاعف فيه الحسنات، فيه يفتح الله أبواب الاستجابة والقبول، فهو موسم يشحن طاقة المؤمن بقباس آخر هو قابس الصوم، فيشحن الهمم إلى طلب البر والتقوى، ويهيئ الله فيه لعباده فرصاً من الرحمة، تفتح أبواب التوبة للعائدين، والمغفرة للمستغفرين، الذين يستثمرون فضل الزمان الشريف، كما ورد في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم ومالك والنسائي وأبو داود "إذا دخل رمضان فتحت أبواب السماء، وأغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين" وفي رواية أخرى "فتحت أبواب الرحمة".

في شهر رمضان ينشط الناس للبذل والعطاء، لأن روحانية رمضان، تشعر الصائم بما للآخرين المحتاجين من حقوق، في البر والصدقة والزكاة، وسائر أنواع التكافل والتعاون، ولكن هذه الصورة المشرقة من العطاء والبذل، عندما نتأملها من خلال منظار الشريعة، نجد فيها خمولاً وسكوناً تارة، وخطلاً وجهلاً تارة أخرى.

4 - لماذا لا نزكي إلا في رمضان؟

كثير من الأغنياء يوقّتون أداء زكاتهم في رمضان، فإذا جاءهم طالب زكاة في غيره، قالوا: تعال في رمضان، ويبدو أن هذه العادة

الموسمية، تحولت إلى نوع من العبادة الشرعية.

إذ إن كثيراً من الناس، يفهم الآثار التي وردت في الحث على الصدقة في رمضان، على أنها تضاعف أجر الزكاة في رمضان أيضاً، اعتماداً على مثل ما أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل "أي الصدقة أفضل؟" قال "صدقة في رمضان". وهذا فهم غريب للدين، فعلى الرغم من صحة الأحاديث التي تنص على مضاعفة أجور الأعمال الحسنة في رمضان، بما فيها الصدقة والزكاة، فقد أغفلنا فهمها فهماً كلياً، في إطار الوحدة العضوية للشرعية، أي وضع النصوص المفصلة في مكانها المناسب من النص الكلي، بحيث يدور معنى النص مع وظيفته العضوية، بصفة الشريعة جسماً متكاملًا، ومن خلال مقاصد الشريعة الكلية، يمكن أن نلاحظ أمرين:

الأول: أن أداء الزكاة مرتبط بتمام الحول، على المال المزكى. فهو أداء واجب تطلب فيه براءة الذمة، وليس عمل تطوع، يبحث فيه عن فضل الوقت أو المكان.

الثاني: أن فضل الصدقة مرتبط بحدوث الحاجة، فحيث نزلت الحاجة، تكون الأفضلية.

وقد يقول بعض الناس، إن تمام الحول على ماله هو رمضان، وهذا كلام مقبول، لو كان الذين يوقتون إيتاء الزكاة في رمضان، حوالي 8% من الناس، أي على افتراض أن تمام الحول، يكون عند بعضهم في رمضان وعند بعض في صفر، وهكذا دواليك، خلال اثني عشر شهراً.

ولكن غالب الناس يحصر صرف الزكاة في رمضان، اعتقاداً منه

بأن دفع الزكاة في رمضان أفضل. والقول بالأفضلية يرجع إلى اعتبارات عديدة: فإن كانت الأفضلية للزمان فنعم، لكن دفع الزكاة واجب، وليس هناك إذن مزيد أجر، لمن قام بالواجب في رمضان، على من قام به في شعبان.

وإن كان الإنسان أخر زكاته بعد تمام حولها، لينال فضل الزكاة في رمضان، فهذا فهم غريب للدين، يؤخر فيه الإنسان أداء الواجب عن وقته الشرعي المفروض، بحثاً عن مزيد من الثواب.

وإن كان قدّمها إلى رمضان، مراعاة لحوائج الفقراء في هذا الشهر، فقد أصاب السنة والأفضلية. إن الاستشهاد بالآيات والأحاديث، لا يكون بعزل النص عن سياقه العام، من أجل ذلك ينبغي أن نذكر ببعض الإشكالات، الناتجة عن جعل الناس رمضان موسماً مركزياً، يصرفون فيه زكواتهم وصدقاتهم، مع التذكير بضرورة تجديد فقه الزكاة في المجتمع الحديث، الذي كثرت فيه النوازل والمتغيرات، وذلك يدعو إلى مراعاة المقاصد الشرعية، بربط العمل بالجدوى والنية بالنتيجة، ولا بد من فهم أفضلية المكان أو الزمان، من خلال ربطها بحاجة الإنسان، فإذا كان الفقير أحوج إلى المال في شهر صفر، منه إليه في رمضان، فالإنفاق في صفر هو الواجب، وليس الأولى فحسب.

إن للفقراء حوائج موسمية، صارت مرتبطة بالتقويم الشمسي، فالأسرة الفقيرة - في بداية الموسم الدراسي -، بحاجة إلى مصروفات، تعين على تعليم البنين والبنات، وفي الشتاء بحاجة إلى أكسية وأغطية، تقي من البرد القارس، وكثير من الفقراء لا يجيدون الادخار، فيبددون ما يصل إلى أيديهم في رمضان، فلا يحل صفر إلا وقد صرفت أيديهم.

والأسر أيضاً بحاجة إلى كراء المساكن، وتسديد فواتير الكهرباء ونحوها وغيرها، وهذه الأمور مؤقتة بالتقويم الشمسي أو القمري، ولا بد من مراعاة هذا وذاك، إن نمط الحياة الاجتماعية المستقرة، صار يدعو إلى طرح أسئلة جديدة: أليس من الأفضل أن يوقت المزكي ميعاد زكاته على هذه الأوقات؟ أم أننا سنظل نفهم أحاديث الفضائل، دون ربط لها بالصورة العامة لاحتياج الناس؟ ودون مراعاة مبادئ الاقتصاد، الذي يربط الوسائل بالغايات، والأفضلية بالاحتياجات، في أي وقت من الأوقات.

5 - من ثقافة الشحاذة إلى ثقافة الكرامة:

كثير من دافعي الصدقة والزكاة، يقطرونها في أفواه الفقراء تقطيراً، وكأنها ناقوط القرية أو أنابيب التغذية في غرف الإنعاش، فلا تكاد تسد رمقاً، ولا ترفع عاطلاً من حفرة العطالة، ولا تشفي مريضاً يحتاج إلى ما يشترى به الدواء، ولا تمكن طالباً فقيراً من الاستمرار في علم ضروري.

ليس الهدف من الزكاة في الإسلام، إعطاء الفقير درهماً أو درهمين، إنما الهدف تحقيق مستوى لائق للإنسان، بوصفه إنساناً مكرماً، مستوى لائق بوصفه مسلماً، ينتسب إلى دين يؤكد العدل والإحسان (القرضاوي: الزكاة: 575).

بل إن طريقة إخراج الزكوات والصدقات، أحياناً تنمي روح (الشحاذة) في الفقير، إذ إن بعض الناس يبخل سائر العام، ثم يتدفق في رمضان دون حساب، فنتحول فئة من الناس إلى أيد مبسوطة، وعيون ممدودة، وأفواه مفتوحة. تعناد الكسل وكرهية العمل،

واستمرار الاستجداء، وتتقن (ثقافة الشحاذة) وما لها من آليات، وإدعاء آفات وعاهات.

والمصدق عندما يعطي الذين لم يتأكد من صدقهم، يفهم أحاديث رد السائل على غير وجهها، ويسهم في صناعة روح العطالة (أي الكسب الطفيلي)، في المحتاجين وغير المحتاجين، وصناعة روح السادية في المعطين.

بل إن بعض المعطين من الأثرياء، يرتاح لاصطفاف الناس، حول مكتبه أو داره في رمضان، حين يتوافدون أفراداً وجماعات، يسلمون على (العم) ويقبلون رأسه، وقد طأطأوا هاماتهم، وعلتهم الذلة والمسكنة، وكأنهم في احتفال جنائزي، وكأن هذا العم يعطي من ماله، بينما هو يعطيهم حقاً من حقوقهم، لا تجوز المنة به ولا الأذى، فهذا المال ليس له (في معايير الشريعة الإسلامية)، بل هو مال الله، فإله مالكة الحقيقي، قد أمر ببذله للمستحقين، فقال: ﴿وأنفقوا من مال الله الذي آتاكم﴾، فكان الإنسان وكيل على هذا المال مستخلف، كما قال الله تعالى ﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾. وحدد الله أيضاً مجال صرفه، ليربي الناس على التكافل والتراحم، دون فوقية ولا أنانية.

وهذه الفئة من الشحاذين المتبطلين المتسولين، الذين احترفوا سؤال الناس، ليست هي فئة المساكين التي يظن كثير من الناس، أنها تستحق شيئاً من مال الله، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم "ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرثان، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفف، اقرأوا إن شئتم: ﴿ولا يسألون الناس إلحافاً﴾ (البقرة: 273).

ولو كانت الزكاة والصدقة تجوز للعاطلين، لجازت للزهاد

المتزهيبين، فقد ذكر الفقهاء، أن الزكاة لا تجوز لمن يتفرغ للعبادة (الرهبانية)، لأن مصلحة عبادته قاصرة عليه (أنظر الروضة للنووي: 309/2).

فالمتفرغ للعبادة المحضة لا يجوز أن يعطى بأي وجه من الوجوه، وهذا ما وجّه به عمر بن الخطاب، أناساً جلسوا يتعبدون في المسجد بعد صلاة الجمعة، فسألهم كيف ترزقون؟ فقالوا: إنهم يعتمدون على صدقات أهلهم، فقال لهم: إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، ألم تسمعوا قول الله تعالى: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾.

ومن ذلك يتضح كما يقول القرضاوي، ضلال الكثيرين، من من ظنوا الزكاة صدقة تعطى لكل سائل، وتوزع على كل مستجد (فقه الزكاة: 898).

إن كثيراً من الناس يتصورون الزكاة، على أنها صدقة للمتسولين، ومعونة للمتطلين القاعدين، ولا بد من تصحيح المفاهيم والقيم، من أجل بناء أنظمة اقتصادية واجتماعية، تقوم على العمل والإنتاج. في حالات غير قليلة؛ يسهم سوء توزيع الصدقات والتبرعات، في إنتاج فئات من الشخصيات المشوهة، التي تجد الاستجداء أهون وأضمن، فترسخ فيها الطفيلية، كالنباتات التي تتسلق على الحيطان، تتعود على ثقافة الاستجداء، ومفرداتها من الخنوع والنفاق، والعطالة الظاهرة والمقنعة، فيفقد الشحاذ معنى الإنسانية، ولذلك لا ينبغي إعطاء السائل دون تقدير أثر ذلك على سلوكه، لكي لا تحطم فيه قيم المروءة والكرامة، كما قال سعد البواردي:

كل من أعطاه قرشاً حطم الإنسان فيه

6 - إقراض الفقير شبكة خير من منحه السمكة:

نعم للناس حوائج آنية، وضرورات استهلاكية ذات أولوية ينبغي مراعاتها، ولكن مشاريع الزكاة والصدقة، ينبغي أن ينظر إليها على أنها أسلوب أمثل للنهوض بالفرد والجماعة من حفر الفقر، ولا بد إذن من بناء العادات (الإنتاجية)، بتأهيل الفقير حتى يستغني، بعونه على اكتساب عمل شريف، وهذا يتطلب أن يتخفف المزكي، من نظام توزيع زكاته، على شكل (قطرات)، تنقط في الحلق، أو شكل حفنة توضع في الكف حبيبات، ولا تكاد تخرج الفقير من فقره.

إن المزكي لو نظر كل عام في حالة فقير، أو جمع زكاته مع زكاة أخيه أو مع أصحابه، ثم اشتروا بها آلة صنعة لعاطل، أو بنوا بها بيتاً لذي عاهة مستديمة، أو اشتروا بها مكائن خياطة لیتيمات، أو فتحوا بها دكاناً لعاطل، لكان هذا الأسلوب أجدي من قطرات الماء، التي تقطر في حلق الفقير، وتوقعه في برائن شركات التقسيط، التي تقمع رأسه كلما حاول رفعه، فكلما خرج من حفرة، تدحرج مرة أخرى إلى الحضيض.

ويغفل كثير من الناس عن أن الأجدى للمتصدق، أن يعلم الفقير مهنة صيد السمك، بدلاً من أن يتصدق عليه بسمكة، هذه الخطة في أداء الصدقة أو الزكاة، جاء بها الإسلام، بل جاء بما هو أكمل، كما في حديث أنس بن مالك، الذي أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، أن رجلاً من الأنصار أتى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله، فقال الرسول له: أما في بيتك شيء؟ قال الأنصاري: بلى حسك (بساط) نلبس بعضه ونبسط بعضه، وكعب (إناء) نشرب فيه الماء، فقال الرسول: ائتني بهما، فأتاه بهما، فأخذهما الرسول وقال:

من يشتري هذين؟ قال سهل (أحد الصحابة) أنا أخذهما بدرهم، قال: من يزيد؟ قال رجل: أنا أخذهما بدرهمين، فباعهما، وأعطى الأنصاري الدرهمين، وقال: اشتر بأحدهما طعاماً، وائت به إلى أهلك، واشتر بالآخر قدوماً فأنتي به ففعل الأنصاري ما أمره به النبي، وعاد ومعه قدوم، فشَدَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عوداً، وجعله ساعداً لقبضة القدم، ثم قال اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يوماً، فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوباً، وببعضها طعاماً، فقال الرسول: "هذا خير لك من أن تجيء بنكتة في وجهك يوم القيامة".

هذا هو الأسلوب الأمثل، لكي يساعد الموسر أخاه الفقير، على اكتساب عمل شريف، فصنعة في اليد هي الأمان من الفقر.

ومن أجل ذلك فإن الأولى أن يقسم الفقراء إلى قسمين: الفقير الكسوب بذهنه أو بدنه، والفقير العاجز بذهنه وبدنه معاً، فالكسوب يستطيع أن يمارس حرفة يدوية أو يمارس عملاً تجارياً أو يديره. فيعطي المحترف ثمن آلة، وإن كثرت، ويعطي القادر على الكسب رأس مال يساعده على البداية بعمل ذي ريع، فيضمن له اكتساب العيش، أما الفقير الذي يخشى عليه من تبيد المال أو الذي لا يستطيع أن يعمل، فيعطي كفايته مع كفاية عائلته سنة (مطالب إلى النهى: 136/2) ولذلك استحسن القرضاوي، أن يعطى الفقير العاجز راتب شهرياً من الزكاة (فقه الزكاة: 571).

7 - مجالات جديدة للزكاة والصدقات:

مع ظهور الدولة الشمولية الحديثة، في العالم الإسلامي، ينبغي

إعادة تركيب الصدق، ولا سيما في الأوقاف والوصايا والزكاة، ليقوم المجتمع الأهلي بتكميل ما ينبغي تكميله، في سياق التكامل بين دور الدولة ودور المجتمع الأهلي، مع إعمال قواعد مقاصد الشريعة، كالتوازن والتكامل والأولوية.

في هذا العصر تعطلت مجالات منافع كثيرة، وظهرت مجالات منافع جديدة مهمة، وتجاوزت حركة التغيير في الحياة الاجتماعية، كثيراً من آراء العلماء الأمويين والعباسيين واجتهاداتهم، وأصبح من الضروري العودة إلى (نور) القرآن الكريم والحديث الشريف، وفهمها من خلال (مشكاة) حياة فترة الراشدين، ولا بد من نصب هذا الميزان، ومعرفة الواقع معرفة صحيحة، من الجوانب كافة، لإعادة بناء سلم هذا النظام المالي المهم، الذي يتناول كفالة المجتمع الأهلي، لما تتركه الدول من مجالات، حسب غناها وفقرها وحسب قيامها بواجباتها، في الضمان الاجتماعي.

وهنا إذن يستطيع المحسن الواعي، أن يرتب الأولويات في أموره، بل وفي الأمور التي أوصى بها الأجداد الأحفاد، فهل من الضروري حفر بئر إذا كانت الدولة في هذه الناحية أو الإقليم قد حفرت بئراً؟ وهل الأولى بهذا المال ذلك الفقير المنقطع لحفظ القرآن الكريم في مجتمع كثر فيه الحفظة الرواة المتفقهون، وقلّ الوعاة العاملون، وكثر خريجو العلوم الإنسانية وقلّ خريجو العلوم الطبيعية، كالأطباء والمهندسين؛ وهل هذه المدرسة المنشأة الدينية أولى بهذا المال، أم هذه الجريدة أو هذه القناة الإعلامية؟ وهل بناء هذا المسجد في هذا الحي أولى؟ أم أن حاجة أهل الحي إلى طريق يفتح أو يسفلت أولى؟ وهل معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "خيركم من

تعلّم القرآن وعلمه؛ أن لا نوازن بين تعليم القرآن والتقنية والصناعة معاً، في نسق واحد؟

وهل معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم "من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة" يعني أن بناء المسجد على الإطلاق، أولى من بناء المدارس والمصانع والمشافي على الإطلاق؟ أم أنه قضية الأجر مرتبطة بوظيفة هذا المسجد أو المشفى، في إطار الوحدة العضوية للشريعة؟ وهل يستبعد من العلم الذي يقرب إلى الله؛ تعليم الصناعات والزراعات والمهن والحرف، التي يرفع بها الله المسلمين، ويعزهم من الذلة والاستغلال.

وإذا أوصى الميت بأصاحي كثيرة، لا يجد الوكيل من يأكلها من الفقراء؟ فهل من الوعي الديني أن يظل الموتى يحددون مآل مال الله، الذي آتاهم في حياتهم، ولو تغيرت الأحوال بعد وفياتهم؟ وهل من الوعي الديني أن تتعطل المنافع تعطلاً كاملاً، لكي يقال لمن تورط في وقف تعطلت منافعه، كيف يخرج من ورطته؟

ومن ذلك توجيه صرف الزكاة للمتفوقين، في الدراسات التقنية والمهنية والتطبيقية، وقد نص العلماء القدامى، على أن الذي يتفرغ لدراسة علم نافع للأمة، يجب أن يعطي من الزكاة، أي أن الذي يعطي من الزكاة نوعان: من يحتاج من المسلمين أو من يحتاج إليه المسلمون، واشترط بعضهم أن يكون الدارس نجيباً يرجى تفوقه، وهو قول كما ذكر القرضاوي وجيه يجسدّ كليات الشريعة، يشبه ما تسير عليه الدول الحديثة، التي تنفق على النجباء والموهوبين (فقه الزكاة 561).

8 - لماذا نضرب النصوص الكلية بالجزئية؟

ولماذا هذه الحركة الدائبة، لنشر الأحاديث الدينية التي تحت على تعليم القرآن الكريم ونوافل الحج والعمرة ونحوها؟ هل هؤلاء الذين يركزون على هذه العبادات الخاصة، يعتقدون أنها أولى من غيرها على الإطلاق؟ أم يعتقدون أن الناس قاموا بالفرائض الاجتماعية والعمرانية، وأهملوا النوافل الروحية؟ أم أنهم لم يسألوا أنفسهم هذه الأسئلة؟ أولاً يدركون أن الأمة لن تستعيد حريتها، إلا بالتركيز على الاستثمار في مجالات العلوم؟ هل هناك فراغ نصي شرعي في النصوص، التي تؤكد أهمية الإبداع التقني والاقتصادي ونحوه، أم هو ركض عاطفي غير متوازن.

ولو افترضنا وجود فراغ في النصوص التفصيلية، ألا تكفي النصوص المجملية، التي توجب مراعاة المصالح الكلية، ومن المطلوب إذاً من المثقف الديني سواء كان عالماً أو متعلماً، أن ينهض بدوره، في إيقاظ أمته، وذلك يتطلب منه مراجعة عميقة لثقافته، قبل أن يتصدى لتعليم الناس، فـ (تصفية) الثقافة، مسألة ذات أولوية، قبل التصدي لـ (التربية). ومسألة إدراك (مفاهيم) الشريعة تسبق التصدي للـ (التعليم). وهذان المبدآن يشيران إلى أهمية أمرين:

1. إبراز النصوص الإسلامية بشكل متوازن، من حيث التكرار، لأن تكرار النص الجزئي يكسبه رسوخاً مع الزمن قد ينسى ما هو أهم منه أو يهمله، ولا بد من ضبط معدل التكرار حسب الحاجة. أي أن يدرك الواعظ والخطيب، ضرورة ترك شحن الناس، بأمور ثانوية، على حساب أمور أساسية.

2. ملء منطقة الفراغ النصي التفصيلي، بالأدلة الأخرى من النصوص العامة، والتطبيقات الراشدية، والإجماع الصحابي والقياس والمصالح المرسلة، فالعلاقة بين (نور) الكتاب والسنة و(مشكاة) التطبيق النبوي، تكفي لإدراك سنن إقامة المجتمع النموذجي، وبذلك تكون كتب الثقافة الدينية العامة التي تقرأ في المجالس والمساجد، شاملة مجالي الدنيا والآخرة، في مجال العبادة المحضة كالصلاة، وفي مجال العبادة غير المحضة كالاقتصاد والعمران، وفي المجال الفردي والاجتماعي معاً.

9 - أفلا ننشئ مؤسسات للصدقات الجارية؟

ألم يأن لأهل الخير، أن يدركوا أهمية العمل المؤسساتي، في إدارة الأعمال الخيرية؟ مهما كان له من النفاص، فإن محاسنه أكثر، وأخطاه نقل عبر الزمن، ومع التجريب والمحاولة ينجح المسعى، فجهود الجماعة الواعية، أفضل عشرات المرات، من جهود الأفراد الواعين، فضلاً عن غير الواعين، لقد سبقت أمم الغرب إلى كثير من هذه الطرائق، وحققت ما أدلتنا به، من نجاح مدني، وأبسط مثال لها أنه تطور على يديها نظام الوقف الإسلامي، فأنشأت نظام الجمعيات التعاونية، ولا بد للعمل الخيري الإسلامي من أن يكثر ويرسخ هذه الطرائق، ولذلك مبررات:

أ - العمل المؤسساتي أوعى بالأولويات والموازنات، من الأفراد الذين يتلقفون الفتاوى، التي تناسب أهواءهم أو قصر نظر المفتين أو هما معاً، فقد تكون الفتاوى التي يعتمدون عليها حديثة واعية أحياناً نادرة، وقد تكون عباسية قديمة كتبت لمناخ عباسي، وقد تكون لفقهاء مقلد لم تتنبثق من رؤية واعية للشريعة،

تستوعب المتغيرات، وتقدم حلولاً عملية لها.

ب - والهيئات أقدر على رؤية أولويات الحاجات، إذ ستقدم الحاجات الأساسية على الفرعية، لبلد أو مجتمع أو دولة.

ت - ولا بد من إنشاء آليات مناسبة، لكي تصبح الصدقة والزكاة جارية، بإقامة المنشآت العملاقة، كالمصانع والمزارع والمساكن، التي تدر دخلاً يضمن استمرارها.

ث - ويمكن توسيع مفهوم الإحسان وترابطه وتدرجه، بإعفاء المعسر من سداد دينه، يعتبر زكاة عليه، وإعفاء المستقرض العاجز عن سداد ما استقرض، يعتبر زكاة عليه أيضاً، لأن الأخذ بهذا الرأي، يشجع الناس على التكافل وإقراض المعسرين، ويجنبهم المراباة، ويشجع الأغنياء على ترك التهييب من إقراض الفقراء أو مبيعهم.

ولا جرم أن القول بجواز إسقاط الدين عن المعسر من الزكاة، هو الأولى بناء على تضافر النصوص، وبناء على النتائج العملية أيضاً، فهو إذن مقتضى مقاصد الشريعة. وقد نقل الجواز النووي عن الحسن البصري وعطاء، وكما قال بذلك ابن حزم أيضاً، مستنداً بحديث أبي سعيد الخدري، في صحيح مسلم: "أصيب رجل على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم في ثمار ابتاعها فكثر دينه، فقال صلى الله عليه وسلم لدائنيه "تصدقوا عليه" (أنظر المحلى 105/6 - 106)، ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ (البقرة: 280) ورجح ذلك القرضاوي (الزكاة: 849)، وقد حصر الحسن البصري اعتبار التنازل عن الدين زكاة بالقرض، لا بديون التجار، ولكن لا دليل على هذا التقييد.

10 - تفطير الصائم وبضعة أسئلة:

إذا جاء رمضان وجدت إعلانات ولافتات، في الصحف والطرق، عن إفطار الصائمين وما فيه من الأجر العظيم، اعتماداً على حديث الحث على التفطير: "من فطر صائماً فله مثل أجره" ونحن لا نجادل في صحة الحديث، إنما نجادل في صحة التأويل، ثم في صحة التطبيق. وميزاننا لهذا الأمر واحد، هو كليات الشريعة ومقاصدها، لمعرفة مناط التكليف، من خلال فهم الشريعة، باعتبارها نسقاً متكاملًا، يفسر بعضه بعضاً، وفضل كل جزء فيه بحسب وظيفته، وذلك يدعو إلى الربط بين الجهد والجدوى، وذلك يعني تفريع الجزئيات على الكليات، لأن النصوص الجزئية تدور حول قطب النصوص الكلية، ومراعاة توصيل الأعمال إلى الأهداف.

فإفطار الصائم جزء من وحدة التكافل بين المسلمين، وهذا الصائم الذي يُنال الأجر بتفطيره، إنسان له صفات خاصة، كأن يكون فقيراً يسد جوعه أو ضعيفاً أو مريضاً منقطعاً تؤلف عاطفته أو مسافراً لا زاد معه، وليست المسألة إذن إطعام أي إنسان، وإن كان ثرياً غنياً، وهذا الإفطار ينبغي أن يكون دون إسراف.

فإذا مددنا الطرف، رأينا موائد كباراً، موضوعة على الأسمطة، في باحات المساجد، فيها أطعمة متنوعة، يأكل منها أناس مختلفون، فيهم الفقير ذو الجسد الضامر، الذي نحل من الجوع والبؤس، والضخم البدين الذي لا يكاد يدخل الباب، إلا بمشقة.

فهل تطبيق نظام الأولويات والموازنات، يجعل لذلك أولوية؟ ومفهوم الحديث أدق من منطوقه، فالناس يهتمون بإفطار الصائم، ويقصرون الحديث عليه، وليس الفطور بأولى من السحور، ولا

يصح التفريق بين متماتلين إلا بدليل، وهل يحصر إفتار الصائم بمثل هذا الخوان المبسوط في المسجد؟ وهل ينال الأجر بتفطير الأقوياء المكتسبين؟ وهل الأجر محصور بتقديم الطعام؟ أو ليس الأولى دفع المال مباشرة للمحتاج، ليفطر مع أهل بيته؟

ووضع هذه الموائد في المساجد؛ مسألة أخرى مشكلة، لا نريد أن نذمها بمصطلحات البدعة ونحوها، ولكنها لو كانت أولى لفلها الصحابة الكرام، فتحويل ساحة المسجد إلى مطعم مسألة فيها نظر، لأن المساجد أمكنة عبادة روحية اجتماعية، ينبغي أن يكون هواءها صحياً، وأن تكون فرشها نظيفة، وقد قال الله لنا: ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾، وندب المسلم - ولا سيما إذا كانت حرفته يدوية - إلى الاغتسال قبل صلاة الجمعة، من أجل تحقيق هذه النظافة. والناس يضيقون بالروائح الكريهة، من الدهان والسابك والمدخن، فما بالك بروائح اللحوم والدهون، والتوابل وقطار الخبز، وهي تنبعث من ساحة المسجد. إن باحات المساجد ليست مطاعم، وهناك أساليب عديدة، لتفطير الصائمين في المطاعم أو في البيوت.

ومثل ذلك (عشاء الوالدين)، الذي توارثه الأحفاد عن الأجداد، في العصور السوالم، وأصبح عادة متبعة، في كل رمضان، توحى بنشوء بدعة سائدة، لأن استحسان عمل من المنذوبات الشرعية، وربطه بزمن أو بمكان لم يرد في الشريعة، أمر يخرج عن البدعة الحسنة، إلى البدعة السيئة، ولو كان هذا العشاء مشروعاً، لما فات الصحابة ولا التابعين، ترى أليس باب الصدقة عن الوالدين مفتوح الأوقات والمجالات؟ وفي الحياة المعاصرة عشرات الأنماط، التي يمكن أن يسلكها المتصدق عن نفسه أو عن والديه.

نحن المسلمين نملك طاقات كبيرة من الرغبة في الخير، وأرقاماً هائلة من المال، ولكننا نسيء توظيفها، أو لا نرتب الأولويات، والأدهى من إساءة التوظيف أو الإخلال بالأولويات، أن نبرر غفلتنا تبريراً دينياً، فنعتبرها بحثاً عن الدار الآخرة وكأن طلب الآخرة محصور بهذه التصرفات، فنضيع كثيراً من الطاقات هدرًا، كالماء الذي يساق إلى نقر الرمال، فلا هو بقي في جوف الأرض مخزوناً مكنوزاً، لمن يحسن استثماره، ولا هو أنتج ثمراً بقدر ما أنفق فيه من جهد مالي أو بدني.

ولا غرابة، إذا سبقتنا اليابان إلى التفوق المادي والمدني، على الرغم من أنها تعرفت على الحضارة الغربية بعد مصر، بل إن موفديها قصدوا مصر للتعلم في بداية عهدهم بالنهوض، ولا ينبغي أن نتعجب إذا مضي القوم سراعى محققين في السديم، وبقينا نتراجع القهقري، لأننا حولنا بواعث النهضة والتفوق والنجاح في الدين، إلى مضخات تنتج الهمود والخمود، ونسبنا كل ذلك أيضاً إلى الدين، فصار الدين شماعة، للنكوص والخمول والقعود، والجهل بوسائل حفظ الأمة والملة.

إن هذه التقنيات المادية والمعنوية كالتقنيات الفضائية التي تغزونا اليوم، تعلن سقوط نظامنا التربوي، الذي قدّمناه وحافظنا عليه باسم الدين، وفي كثير من ممارساتنا للعبادة الروحية، نترك العبادة الفاعلة إلى العبادة الخاملة، فتكون العبادة في ظاهرها صحيحة، ولكن صحتها مسألة شكلية، لأنها وقفت عند مستوى الطقوس، فهي عبادة ولكنها عبادة قاصرة ضعيفة، تنتج أفراداً وجماعات، هزيلة في كل مستوى لأننا لم نقم من العقيدة إلا شطرها الأول: الشطر الروحي، أما شطرها المدني فقد همشناه.

11 - مفهومنا للإحسان مفهوم متخلف:

وأخيراً فإن لدينا تخلفاً ثقافياً واجتماعياً، في مفهوم الإحسان والمعروف، فهناك بشر غير قليل يفهم الإحسان، على أنه تكرم وتفضل، بل ربما خطر في بالنا، أن المعطي صاحب يد بيضاء عليا، وأن الآخذ صاحب يد سوداء دنيا، وربما بررنا هذا الشعور بالحديث الشريف "اليد العليا خير من اليد السفلى".

وهذا الحديث ليس تقييماً دينياً للمعطي بأنه متفضل، بل هو حث للسائلين على مفارقة الحالة الدنيا، وهي حالة المستهلكين، لكي يرتفعوا إلى مستوى المعطين المنتجين، ولكنه ليس حكماً عليهم بالدونية، إذا كانوا عاجزين عن العمل أو كانوا بحاجة إلى رأس مال؛ يبتدئون به حياتهم المهنية أو كانوا متفرغين لعمل نظري أو تطبيقي تحتاج إليه الأمة.

وفهم الإحسان على أنه تكرم وتفضل ومعروف، إفراز من ثقافة التخلف، يجسد الأنانية والجشع، والأثرة والروح الفردية. حين يصبح الإحسان غلاً في عنق المستعطي، يستثمره المعطي المنتفخ بالكبرياء والرياء، ليبنى به سمعة أو جاهاً، أو ليصبح البر قلائد منة واستعباد. هذا المفهوم الشائع مفردة من مفردات الثقافة المتخلفة، التي بلورها الشاعر بقوله:

أحسن إلى الناس (تستعبد) قلوبهم فطالما (استعبد) الإنسان إحسان

أي إحسان هذا وهو يفضي إلى الاستعباد؟

إن صاحب الإحسان الحقيقي هو الله، والإنسان إذا تصدق أو زكى، إنما يزكي نفسه ويتصدق عليها، فالإحسان إذن هو القيام

"بالواجب الطبيعي للإنسان وكما أحسن الله على الإنسان بنعمه، عليه أن يحسن بهذه النعم إلى الخلق" (طبارة: روح الدين: 202)

ومن أجل ذلك فإن الإحسان لم يصبح منة واستعباداً، إلا عندما فقدت الثقافة الإسلامية صفاءها، عندما فشا اختلال القيم الدينية، فانطمرت الحقوق الشرعية الطبيعية، حتى صار بذل المعروف صنيعاً تصطنع في أعناق الناس، ويطالبون بئمنها المعنوي أو المادي طوال الدهر، وحتى صار أداء الواجب تفضلاً من مؤديه، يستوجب من الآخرين أن يشكروه عليه، وصار الشكر دَيْناً في عنق من يعطى حقه، وحتى صار أداء الأمانة منة، تستوجب التملق والشحاذة والمديح.

مع أن القضية في الدين، أخذ حق ودفع واجب، فليست مجال تفضل أو تكرم، وما دام المال الذي بين أيدينا لمالك غني، فعلياً أن نطيعه في ما أمر، وليس لنا إلا فضل التذرع بالطاعة، فهو الذي أمرنا فقال: «وأنفقوا من مال الله الذي آتاكم»، وإنما أعطانا ليختبرنا، فليس لنا في المال إلا الاستخلاف، ولذلك قال: «جعلكم مستخلفين فيه» ليختبر حسن تصرفكم.

وهذا معنى قوله تعالى: «وأحسن كما أحسن الله إليك»، فإذا قضى الإنسان دينه، فعلم يعدّ نفسه متفضلاً، والإنسان إذا أقرض لا يقرض أخاه، وإنما يقرض الله، فقد وصف الله عباده الطيبين بأنهم «أقرضوا الله قرصاً حسناً».

وإذا أدى المعطي ما يجب عليه، فليس إذن بأجدر بالشكر من الآخذ، فإذا كان المعطي يريد بالإعطاء أداء الحقوق، وإذا كان الآخذ يريد بالأخذ القيام بالواجبات، فما فضل المعطي على الآخذ؟

12 - المفهوم الإسلامي للإحسان

ولذلك فإن المعنى الإسلامي للإحسان معنى (إنساني) أي أن الآخذ ليس أقل إحساناً من المعطي، لأن الفقير أو المحتاج المستقرض والمستعين والمستدين، أتاح لإخوانه الفرصة الذهبية، لكي ينقوا أنفسهم من أدران الحرص والشح، والأنانية والأثرة، ولذلك قال الله تعالى «إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم».

وكما قال القرضاوي وفقنا الله وإياه "فالزكاة حق للفقراء في أموال الأغنياء، وهو حق قرره مالك المال الحقيقي وهو الله، فليس فيها من معاني التفضل من الغني على الفقير... إذ لا منة لأمين الصندوق، إذا أمره صاحب المال، بصرف جزء من ماله على عياله"، فالزكاة ضريبة تؤخذ، وليست تبرعاً يمنح، هذا الحق لم يوكل لضمائر الأفراد وحدها، وإنما حملت الدولة المسلمة مسؤولية جبايته بالعدل وتوزيعه بالحق (الزكاة: 86) ولذلك فإن مالك المال الحقيقي، حدد مصاريف الزكاة، لكي لا تكون خاضعة للأهواء والآراء الشخصية.

الزكاة في الإسلام أول تشريع منظم، للضمان الاجتماعي، الذي لا يعتمد على الصدقات الطوعية المتقطعة، وليست من باب الإحسان والتكرم، بل هي ضريبة إلزامية، تؤخذ من الفرد الذي منعها قهراً، وتقاتل الجماعة التي تمنعها، وهي ثابتة المقادير، تقوم عليها الدولة المسلمة جباية وصرفاً، وتأخذها من الأغنياء، وتردّها إلى الفقراء. فهي حق معلوم كل عام، وقد سبق الإسلام في ذلك الدول الحديثة، التي لم تشرع الضمان الاجتماعي، إلا في القرن العشرين منذ سنة 1941م (الزكاة: 880 - 883).

في المفهوم الإسلامي للإحسان تتساوى يد المعطي ويد الآخذ،

فكلاهما يد عليا، فيد الآخذ عليا إذا كان مستحقاً، ولا سيما إذا كان منتجاً، كأن يكون دارساً في تخصص نادر أو متفرغاً لبحث ذي شأن أو عاملاً يشتري آلة تكفيته مؤونته، أو أم أيتام تسهر على تعليمهم وتربيتهم، أو إنساناً أصابته عاهة، ففقد قدرته على العمل. أو مبدعاً في مجال نافع للأمة، فأيدي الجميع عليا، ولا فرق بينهم في الأجر إذا أحسنوا النية، إلا من حيث مدى الجهد.

لا شك في فضل الغني الشاكر، على الفقير الصابر، لأن فضل الغني الشاكر يتعدى إلى غيره، ولكن فضل الفقير الصابر لا يتعدى إلى غيره، هذا الفضل على الإطلاق، في المجال العام، إذا كان الصابر عاجزاً ضعيفاً، ولكنه ليس على الإطلاق، إذا كان الفقير الصابر يقوم بدور علمي أو عملي فعال. لا بد من النظر إلى دور كل منهما، في البناء والإنتاج أما في مجال الأجر عند الله، فالحساب يتم بميزان التعادل، مع المقارنة بين الطاقة الموهوبة والمكسوبة، والعمل المنجز، فالفضل لمن يحسن استثمار طاقته في نفع أمته، ولمن يحسن اكتشاف قدراته، لأن الناس يتخادمون، كما قال أبو العلاء:

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

وصدق الله العظيم ﴿وجعلنا بعضكم لبعض سخرياً﴾

23/11/26

3 - وظيفة العبادة

شحن الإرادة: الصوم نموذجاً

نشرت في الشرق الأوسط اللندنية في حلقتين،
الأربعاء الموافق 13/رمضان/1419هـ و 30/12/1998م.
ويوم الخميس الموافق 14/رمضان/1419هـ و 31/12/1998م.

13 - سؤال: هل يقترب منه التربيون؟

الإسلام نظام متكامل من القيم، التي تنتج سعادة الدنيا والآخرة معاً، وهو مولّد فعال للطاقة الإنسانية، التي تبني الحضارة الحقة والتقدم الشامل. حضارة الإيمان والعلم، والعدل وال عمران. هذا النظام المتكامل طَبَّق المسلمون الأولون كثيراً من مفرداته، فظفروا بما ظفروا به من خيرية في الدنيا والآخرة بين الأمم.

ولكن المسلمين المتأخرين أخلوا بالوحدة العضوية للشريعة، وطَبَّقوا من الإسلام جزئيات متفرقات، عبر التأويل والتحريف، حتى تعطلت قدرة هذا المولّد الفعّال عن التشغيل حيناً، وضعفت تارة أخرى. واليوم ألا ينبغي لنا العودة المباشرة إلى فقه التنزيل - الكتاب والسنة -، وتطبيق عهد النبي صلى الله عليه وسلم ثم الراشدين، فذلك هو (المنهاج) التربوي المتكامل أي (المعيار) والميزان الذي توزن به التصورات والتصرفات التالية، وسندرك بذلك من الفرق بين الصورة (المعيارية) المطلقة النموذجية للإسلام والصور النسبية للأفكار والممارسات الإسلامية بعد عهد الراشدين، التي سادت في عهود الاختلال. ولذلك لا بد أن يفترض المتأمل ثلاثة احتمالات تجاه ظاهرة الاختلال:

1. إما أن الإسلام نظام روحي محايد، لا يمنعنا من التقدم والعز المدني، ولكنه لا يلزمنا به.
2. وإما أن يكون الإسلام روحي ضد المدنية، لأنه نظام رهباني يعد الإنسان للدار الآخرة فحسب.
3. وإما أن تكون المفردات التي نتواضع على أنها هي الإسلام، وترويتها لنا الثقافة الدينية التي أنتجت في العصور الأموية والعباسية والمملوكية مفردات ناقصة مبتورة عن نسقها، فهي تقدم أشياء صحيحة من الإسلام، ولكنها لا تقدم الإسلام الشامل، الذي هو شطران: شطر التقدم الروحي وشرط التقدم المدني. وهناك أمر مهم قد يند عن البال، في أداء العبادات الروحية هو الفرق بين صحة العمل المشروع وتمامه، فالصلاة إذا أدبت بطهارة في وقتها صحيحة، ولكنها لا تكون تامة إلا بنهيتها عن الفحشاء والمنكر في كل أمر مدني كشراب الخمر والزنا والسرقة وخمول الهمة، ومن المناسب الانتباه إلى هذه المسألة، وعندما نتحدث عن شعائر الدين الروحية أو نؤديها، ينبغي أن نستحضر الفرق بين صحة هذه المفردات وتمامها، فهي صحيحة ولكنها غير تامة - إذن - كما ذكر الإمام ابن تيمية في غير هذا السياق، فهي عبادة روحية مجزوءة ناقصة. الصلاة التي لا تؤثر في السلوك، أشبه ما تكون بإسلام الأعراب الجفاة، الذين نبههم الله إلى الفرق بين الصلاتين **﴿قالت الأعراب: أمانا!، قل: لم تؤمنوا، ولكن قولوا: أسلمنا﴾**.
فنحن إذن عمّلنا ببعض الدين وتركنا بعضه، ولم نطقن إلى أن الدين منظومة كاملة لا يمكن تبويضها، لأنه مشروع شامل لسعادة الدنيا والآخرة، وبرنامج تربوي للتقدم الروحي والمدني: مادياً واجتماعياً

ومعرفياً، ولسان حالنا يقول "تؤمن ببعض ونكفر ببعض".
وبديهى أن الافتراض الأول والثاني غير صحيحين، لأن الانطلاق الحضاري للعرب والمسلمين معاً، إنما استمد مولده وشاحنه وروحه وصورته من الإسلام، ولأن الإسلام احتضن الحضارة في عصوره الذهبية، بل هو الذي أنجزها، فحضارتنا العربية للسان، إنجاز وامتياز إسلامي.

14 - النموذج الأعلى والنماذج الدنيا:

ومن أجل ذلك فإن الإنسان الذي يتأمل الحياة، يمكن أن يقول "أن كثيراً من المسلمين اليوم [يكادون أن يكونوا] مسلمين بالاسم، لا يعرفون دينهم في تشريعهم، [ولا في] عاداتهم التي يأخذون بها أنفسهم في هذه الأيام" كما يقول عفيف طبارة (روح الدين الإسلامي: 15).

بل يمكن القول إن كثيراً من المسلمين اليوم أدخلوا بمفهوم الدين نفسه، "فكما أن أي فرد لا يقبله أي حزب في عداه، بدون أن يعمل بمبادئ الحزب، فكذلك الإسلام لا يصح إطلاقه على شخص لا تظهر أعماله مطابقة لتعاليم الإسلام" (طبارة: 15).

ومن الضروري إذن أن نفرق بين النموذج الأعلى للإسلام في عهد النبوة والرشد، وبين النماذج الدنيا، فهنا نموذجان: نموذج أعلى: طبقه المسلمون في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ونماذج دنيا: طبقها المسلمون بعد الفترة الراشدة، وظلت تتدرج في الدنو، حتى أوصلتنا إلى المأزق الحضاري، الذي نعيش فيه منذ بضعة قرون، وهذا التفريق ضروري لكي لا يلتبس الحال بين النسبي والمطلق.

وهذا ما التفت إليه الشيخ جمال الدين الأفغاني عندما قال "إذا

أردنا أن ندعو أحرار أوروبا إلى ديننا، فيجب أن نقنعهم أولاً أننا لسنا مسلمين [تامين، أي لسنا مقياساً للدين]، فإنهم ينظرون إلينا من خلال القرآن، هكذا - ورفع كفيه وفرج بين أصابعهما - فيرون وراءه أقواماً، فشا فيهم الجهل والتخاذل والتواكل، فيقولون: لو كان هذا الكتاب حقاً مصلحاً، لما كان أتباعه كما نرى" (روح: 15).

وهذا المعنى ذكره أحد الهندوس من الوافدين إلى الخليج، عندما عرض عليه أحد الدعاة الإسلام. فقال: لو كان دينكم صحيحاً، لانتشلكم من حضيض التخلف.

ما السبب؟ السبب أن الإسلام الشامل شيء، وما نكاد نتعارف عليه من جزئياته شيء آخر، كما يقول محمد عبده "فجلّ ما تراه الآن من ما تسميه العامة إسلاماً ليس بإسلام [تام]، إنما حفظ من أعمال الإسلام الصلاة والصوم والحج، ومن الأقوال قليلاً منها حُرِّفَتْ عن معانيها، ووصل الناس إلى الجمود... وعدوه ديناً... فكل ما يعاب الآن على المسلمين ليس من الإسلام، وإنما هو شيء آخر سموه إسلاماً" (روح: 15).

إذن التحريف تناول الإسلام في مجال التطبيق الاجتماعي، أيضاً في المجال الثقافي جموداً على مظاهره، وغفلة عن مقاصده العظمى، وإخلالاً بمعادلة الحضارة فيه: التقدم الروحي والمدني معاً، والحث على التقدم في الدنيا والآخرة معاً، وقد رسخ هذا التحريف في الوجدان الشعبي منذ قرون. وكرّسته الثقافة الدينية التي صيغت في عهود الاختلال، فامتصت آثار الأزمنة والأمكنة والبيئات، وركزت على العبادات المحضة فنحت بالإسلام منحى رهبانياً.

15 - عندما يدور المولد ولا ينتج ضوءاً:

ثم إن تأويل الدين شمل النظرية والتطبيق معاً، فلنأخذ الصلاة مثلاً، فوظيفة الصلاة أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتحث على مكارم الأخلاق، وتكف عن الرذائل والمبازل، وتضخ دماء الحيوية والنشاط، وكأنما هي جهاز شاحن، يشحن الإنسان بطاقات الخير والإبداع، وهذا معنى أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذلك استثنى الله تبارك وتعالى المصلين، من طائفة البخلاء والجبناء والمتلوّنين، الذين تحكّمهم الشهوات، فقال: «إن الإنسان خلق هلوّعاً، إذا مسّه الشر جزوعاً، وإذا مسّه الخير منوعاً، إلا المصلين».

وهذا معنى قول الرسول: بني الإسلام على خمسة أركان، فالخمسة هي أركان أي أعمدة وأسس، يبني عليها الإسلام، وليست هي كل الإسلام، فالذي لم يتعبّد الله بغيرها، لم يبن على الأسس مبنى يكفه من البرد والمطر والرياح.

لأركان الإسلام إذن وظيفة روحية، فالأركان الثلاثة: الصلاة والصوم والحج، وظيفتها شحن الإرادة والوجدان، ومثل ذلك وظيفة الدعاء والذكر والتسبيح، ولكن هذه الأركان لا تكفي إذا اقتصر عليها الإنسان، ولم تحده إلى بناء أركان المدينة الفاصلة لأنها تصبح كالمولد الذي يدور ولا ينتج طاقة نور. والمولد الذي يشحن لا بد أن يولد الطاقة عندما يدور، فإذا دار ولم يولد الطاقة، فثمة خلل في طريقة التشغيل أو في الآلة المراد تشغيلها، ونحن المسلمون نوقن بأنه لا خلل في الآلة، (أي الصلاة والصوم) وهذه العبادات الشواحن، إنما هي مذكرات للنفوس، "تلبّي طبيعة النفس البشرية، وهي في تقليبها وضعف استمرارها، وقلة دأبها على وتيرة وحالة واحدة طوال

الزمن، لذا جعل الله لها مواسم" (د. عبد الرزاق الحمد. جريدة الرياض 1398/9/18هـ).

ومعنى ذلك أن هذا المسلم الذي يصلّي ويحجّ ويصوم ويسبّح، ثم لا يكون نموذجاً للإنسان النشيط الفعال الفاضل، في التعامل المالي والإداري والاجتماعي، إنما هو مسلم مريض، على خلاف ما يوحي به تمسّكه بالعبادة المحضة الشاحنة، لأنه لم يبن شيئاً على الأركان فهو إنسان غارق في وضر الخوف والشح والأناية، رغم ما يبدو عليه من مظاهر التدين. أي أن المولّد يدور ولا يضحّ ما يتناسب مع دورانه!

الدين إذن يعلّم الفضائل المدنية، ومن خلا من الفضائل المدنية، فقد أخل بمعادلة العقيدة الإسلامية، ودعوى التدين دون دليل إذن:

وكل يدّعي وصلاً لليلي وليلى لا تقر لهم بذاكا

وهذا ما قرّره القرآن الكريم، نصاً صحيحاً صريحاً، لا يحتاج إلى تفسير، فالإسلام يقرّر أن التقوى هي التحلي بالفضائل الإنسانية، كالكرم والسماحة والصبر، والتضحية والعفو والإنصاف، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى﴾، و﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾، فالبر والرحمة، فضلاً عن الاستقامة والعدل والإنصاف، واجبة في التعامل مع المحاربيين من غير المسلمين فهي جزء من الدين: ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾. فالقرآن يقول لنا كيف أنهاكم، ﴿أن تبروهم وتقسطوا، والله يحب المقسطين﴾. هذا مع غير المسلمين فضلاً عن التعامل بين المسلمين.

وهذا المفهوم نجده واضحاً في وظيفة الصوم، فوظيفته هي ﴿لعلمكم

تتقون»، ويأتي في صلب التقوى عفة الجوارح كلها، عن الفواحش كافة، ولذلك قال الرسول الكريم "من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة، في أن يدع طعامه وشرابه".

ولا ريب أن وظيفة الصوم - وهي غرس التقوى - إنما تكون باستمرار التقوى، طيلة العام، لا أن تكون تقوى خاصة برمضان، فإذا لم ينشحن المسلم بالتقوى طيلة العام، فهنا خلل ينبغي تلمس الله وإدراك أسبابه. وظيفة العبادة الروحية، أنها شاحنة للطاقة الإنسانية، فردية واجتماعية، فإذا لم تقم العبادة بذلك، فإنما هي عبادة رتيبة خاملة، أي قاصرة عن أداء وظيفتها الشرعية، وإنما قال الله ﴿لعلكم تتقون﴾ لكي تتحول العبادة الموسمية، إلى مضخّ فعال مستمر طوال العام. وعندما يقتصر الضخ على موسمها؛ فإنما ذلك دليل مبين؛ على أن العبادة لم تؤد هدفها، وأنها تحولت إلى عبادة موسمية باهتة، غير قادرة على اجتثاث العادات الوحشية والبهيمية والشيطانية الخاملة والفسادة، وهذا تحريف للدين، لا يسمى كفراً ولا شركاً، ولا معصية ظاهرة، ولكنه إخلال فظيع، ومشكلة هذا الإخلال أنه خفي، يصعب على الخواص أحياناً إدراكه، فضلاً عن العوام، والأشك من ذلك أنه تفرغ للركن الديني الروحي من وظيفته.

16 - الإسلام عقيدة متكاملة كيف تحوّل إلى قطع متناثرة؟

نحن إذن أمام كارثة حضارية، هي سبب ما عاناه المسلمون طوال عهود التردّي والجمود، وكانت خفيّة بالأمس عندما كان أجدادنا المسلمون سادة العالم، ولكنها أمام المقارنة مع الحضارة الغربية قد ظهرت دون رتوش، إنها باختصار شديد: أن الدين إنما

نشأ مولدًا للتقدم الروحي والمدني معاً، والسعادة في الحياة الدنيا والآخرة معاً، فحرقه المسلمون عبر الأزمنة والأمكنة، إلى مولد للخمول والسلبية والنكوص.

لماذا؟ السبب هو الغفلة عن أن الإسلام جهاز عضوي كالآلة الكاتبة أو كمكينة السيارة أو كالمولد الكهربائي أو كالبيت، لكل مفردة روحية أو مدنية من أجزاء هذه الأدوات وظيفتها، والحكم على قيمة هذه المفردة أو أهميتها، لا يتم بالنظرة الجزئية التي تعزل الجزء أو الركن الروحي والأخروي عن علاقاته بالأجزاء المدنية والدنيوية الأخرى، وإدراك وظيفته، إنما يتم من خلال النظرة الكلية.

ولكن الفقه الذي صيغ في عهود الاختلال العباسية وما بعدها، غفل عن أهمية هذه الحقيقة، فلم يعط شطر العقيدة المدني ما تستحق من تركيز، ولم يبرزه الإبراز الكافي، الذي يناسب دوره، لأن المسلمين - في عهود الاختلال - كما يقول محمد المبارك: "انصرفوا إلى دراسات جانبية... وفي هذه التجزئة إضاعة لخصائص لا تبدو إلا بجمع الأجزاء، وقيام البناء الكامل للإسلام، وهي الصورة التي وعها الصحابة كل الوعي، واحتواها القرآن في مجموع آياته، والسنة في مجموع ما تضمنته، من أقوال وأفعال" (روح: 9).

وفي سلوكنا الرمضاني نجد نماذج من تحريفنا، وظيفية العبادة المحضة (الروحية) عن غاياتها وأهدافها، وتحويلها من عبادة روحية تشع القوة المدنية في نفوسنا وسلوكنا، وتشحن طاقاتها الوجدانية والعقلية والجسمية، إلى عادة منطفئة مثبطة.

شهر رمضان الذي أكرمه الله بنزول القرآن، وبليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، هو موسم فرض الله فيه أحد الأركان الروحية

العظام في الدين، والمسلمون على اختلاف مذاهبهم وأعرافهم، وأوطانهم ولغاتهم وعاداتهم؛ يشمرون في هذا الشهر عن سواعد الجد، ويفيض هذا الشهر، بما للمسلمين من جد في الطاعة، وحرص على الخير، ولكن عند مقارنة نموذجنا الأدنى، بنموذج الصحابة الأعلى، نجد عدداً من الأمور تضعف آثار عبادتنا، حتى يمكن أن يقال: إن ظاهرها عبادات مهمة، وحقيقتها إما أعراف متخلفة لبست لبوس العبادة أو عبادات خاملة، حلت محل العبادة الفعالة أو عبادة من النوافل فعالة، لكن هناك ما هو أولى منها وأحرى بالتقديم. ونحن بهذا الإخلال بوظائف العبادة يُخشى أن نكون من من نسوا ما ذكروا به.

17 - ثقافة الخوف والاضطراب:

اضطرب المنهج التربوي في تراثنا بين أيدي الوعاظ وكتاب العقيدة والفقه والأدب الديني. هناك شحن للعقلية الإسلامية، بمفاهيم إيجابية وسلبية معاً، تكاد أن تحدث ازدواجاً في الشخصية، فهناك ثقافة تنتج غيلان الخوف في وجدان الإنسان، وتلهب ظهره بأسواط الترهيب، الذي يجعل على الذنب الطفيف عقوبة كبيرة، ويجعل الإنسان الملتزم في حالة قلق وتوتر، من أن يموت على غير هداية. ولا ريب أن هذه الثقافة لا يمكن أن تنتج شخصيات سوية، وهي ثقافة يمكن وصفها بأنها إسلامية ولكنها عباسية، من ما جرى ترسيخه في عهود الاختلال، ولكنها غير متوازنة ولا صافية، لأن الله تبارك وتعالى قال: «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى» ثم فصل فقال: «وأن سعيه سوف يرى» ثم رتب المكافأة على العمل بصورة آلية، فقال: «ثم يجزاه الجزاء الأوفى».

بل إن الإسلام بيّن أن الإنسان إنما يوهب الطمأنينة والسكينة النفسية بالإيمان، كما قال تعالى ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ فذكر الله علاج نفسي للأفراد والمجتمعات، وليس خوفاً يصب على عباد الله ليزيدهم رهقاً.

بل إن الإسلام جعل الإيمان موصلاً للفرح الإيجابي، يدفع المشقات والكوارث والمشكلات: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾، فالتوكل والاستقامة، علاج للخوف والجزع والحزن والكآبة ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً﴾، ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ بل إن هذا الفرح الدنيوي، يؤهل للفرح الآخروي كما قال الرحيم الكريم: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا؛ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾. ولذلك لا ينبغي أن يعول المسلم اليوم، على كثير من القصص والمفاهيم التراثية التي أنتجها الاختلال الاجتماعي بعد عصر الراشدين، إذا كانت لا تتسجم من النصوص التي تقرر مقاصد الشريعة الكلية، كالذي يروى في كتب الوعظ من أن بعض السلف الصالح، كانوا يسألون الله ستة أشهر أن يبلغهم رمضان، فإذا بلغهم رمضان سأله الستة الأشهر الباقية أن يقبل منهم. هذا المفهوم لا ينسجم مع روح الشريعة، لأن الله رتب الجزاء على العمل الصالح بشكل آلي، ولا داعي إلى أن يظل الإنسان رافعاً يديه ستة أشهر، ليقبل الله عمله في ستة الأشهر الفائتة. يدعو ستة أشهر لقبول العمل، أي للمطالبة بالأجر، أليس هذا سوء ظن بالله؟

وليس في الوحيين ما يدل على مشروعية الدعاء ستة أشهر، لكي يبلغ الإنسان رمضان، فمجال العبادة الزمني والمكاني واسع، والعمل الصالح مقبول في رمضان وغير رمضان، والإنسان ينبغي أن يعمل

طوال السنة عملاً يصلح به نفسه ومجتمعه، فإن بلغه الله رمضان، ففعل ذلك يزيد في حسناته وإن لم يبلغه فلن ينقص ذلك حسناته. فكيف نضرب كليات الشريعة ومقاصدها، التي دلت عليها النصوص الصريحة الصحيحة، من أجل قول أو موقف عابر لأموي أو لعباسي فاضل، وكم في ذلك من سوء فهم للسلف الصالح، ووضع لتجاربهم النسبية في موازاة النموذج المطلق.

وهذه النظرة تشبه نظرة بعض المترهدين، الذين يرون أن وفاة الإنسان ليلة القدر أو في رمضان أو في يوم الجمعة، أخرى بحسن الخاتمة أو أن وفاة الإنسان وهو راکع أو تال القرآن؛ أو في المسجد الحرام، أفضل من وفاته وهو يزرع أو يصنع أو يدير محلاً تجارياً، فأين هذا من قول الرسول صلى الله عليه وسلم "لو قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها" ولم يقل صلى الله عليه وسلم: لو مات في رمضان، لتضاعفت له الحسنات، ولم يقل ليقراً من أحس بدنو أجله القرآن فلأن يموت قارئاً خيراً من أن يموت حارثاً، ولم يقل ليصل بضع ركعات، فلأن يموت مصلياً ساجداً، خير من أن يموت ماشياً.

إن ثقافة الخوف، تجسيد لثقافة القمع السياسي الكسروي، التي نمت في ظلال القمع الكسروي، فهي تجل من تجليات الذهن المقموع، الذي يستحلي العذاب الدنيوي، ويتنازل عن حقه في الكرامة الدنيوية، وتوحي له ثقافة القمع بأن ذلك هو سبيل النجاة في الآخرة.

18 - ثقافة اللامبالاة:

مقابل ذلك هناك ثقافة تشيع الإهمال والتساهل والاستهتار بالقيم المدنية، ما دام الإنسان قد أمسك ببعض القيم الروحية، مستشهدة

بنصوص صحيحة صريحة، كقوله تعالى: «إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» وقوله صلى الله عليه وسلم: "من صام رمضان إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه" وقوله "من صام رمضان وأتبعه ستاً من شوال غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر" وقوله صلى الله عليه وسلم "الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان، مكفّرات لما بينهن، إذا اجتنبت الكبائر".

ولكن هناك خطأ شائعاً في الفهم، فهذه النصوص تحدد مفهوم التوبة لمن أرادها، ويمكن أن تكون طمأنينة، لمن أذنب وسأل كيف النجاة. أما أن تكون مبرراً للمتهاونين والمستهترين، فهذا فهم غريب للدين، يستنتجه العاصي الذي يخل بالقيم المدنية، فيخلف في الموعد، ويحلف ويكذب، ويشهد بالزور، ويظلم الآخرين، ويعتاب وينم، ويقدم الرشوة أو يأخذها، ويأكل الربا أضعافاً عبر حيل التورق والعينة والتقسيم الباهظ، ويمارس الموبقات والفجور، ويشرب المسكرات وينتهك القانون، ويغش في البيع، ويفسد الإدارة، ويقضي وقت الوظيفة دون جدوى تناسب ما يقبض من أجر، ثم ينطلق حاجاً ومعتمراً، فإذا جاء رمضان شد ثوبه، ليغفر الله له هذه الهنات الهيئات وغير الهيئات.

هذا منطق انتهازي في فهم الدين، مخالف لمقاصد الدين العظمى، ولكليات الشريعة التي تعنونها الآية الكريمة «فاعبد ربك حتى يأتيك اليقين» أي الموت. هذا المفهوم عندما رسخ في الثقافة الشعبية، جرأ الناس على فواحش مدنية، وإدارية واقتصادية ومادية وروحية، وأدى إلى تهتك (الضمير المهني)، لكل ذي حرفة وعمل، وإلى ضياع القيم الأخلاقية الفعالة في الأمة.

ولا ينبغي لنا أن نياس من رحمة الله، ولا يجوز لنا أن نُيأس، ولكننا نقول: إن مسألة المغفرة أو العقوبة مسألة أخروية، لا يعلمها إلا الله، فتعالوا إلى الحياة الدنيا التي نعلمها، وهي مزرعة الآخرة، فالخراب الأسري والاجتماعي والإداري لا بد منه، إذا كنا سنتهاون في الزراعة، وسنتكاسل في الإدارة والعمل، وسنتلاعب في العمران والصناعة، وسنرتكب ما ظهر أو ما بطن من الفواحش، فيدرّس المدرّس طلابه بدون إخلاص ولا ضمير مهني، ويبني المقاول العمائر والجسور والطرق، دون إتقان وإحكام، ويجمع التاجر ثروته، من الغش في المعاملات المالية والبيع والشراء، ويشرب الإنسان أم الخبائث؛ فتجره إلى الفواحش فهل هذا من مقاصد أحاديث المغفرة؟ وهذا يدل على أننا نمارس انتهازية ثقافية، تدفعنا إلى تأويل أحاديث المغفرة، لكي تبرر لنا شهواتنا وشبهاتنا ونزواتنا، فصحة الأحاديث شيء آخر، غير تأويلها الذي ينتج رسوخ الفساد. وهكذا فإن تأويل نصوص الدين، يؤدي إلى تعطيل مفاهيمه المدنية.

إن كثيراً منا يمارسون ممارسات، لا تتبثق من مفاهيم الدين الصريحة الصحيحة. وينظرون إلى موسم رمضان، وكأنه رحلة الاستجمام، التي ينفذ الإنسان فيها عبثه وهمومه، ليستأنف بعد العيد متاعب وهموماً جديدة.

وهب أن الله غفر للإنسان كل أخطائه، فهذا الغفران مسألة أخروية، ولكن في الحياة الدنيا لا غفران له، لأن الزاني أفسد بيتاً، وشارب الخمر أفسد معدته، والمرتشى والسارق من المال أفسد مجتمعه، والسارق من الوقت عطّل مصالح الناس، والمرتشى قطع عرى العدالة.

19 - رمضان موسم لكن لمن؟

وننسى أن رمضان موسم حقاً لطائفتين: الأولى: التي تريد مزيداً من الحسنات، لأنها من المحسنين المداومين على الطاعات الظاهرة والباطنة، الروحية والمدنية، فردية واجتماعية. الثانية: التي يحدث فيها صوم رمضان انقلاباً نفسياً سلوكياً ينقلها من حالة الظلمة إلى حالة النور، وما ورد من نصوص في فضل رمضان، فإنما هو لمن استقر على التوبة فاستقام، لأن الله علل مشروعية الصوم، بالانقلاب النفسي الذي ينقل المرء من المعصية إلى التقوى، فبين أنه كتب علينا الصوم: ﴿لعلكم تتقون﴾، أي إنه تذكرة تعيها القلوب الواعية.

فشرف الزمان والمكان، ليس المقصود به، ما يتصوره كثير من الناس، من أنه موسم توزيع جوائز، لطلاب لا يدرسون من السنة إلا شهراً. فينجحون مصادفة، عندما تأتي أسئلة الامتحان من عشر الكتاب المقرر الذي درسوه أو أنه مهرجان تخفيض أسعار للسيارات والبضائع والملبوسات، لقوم لا يشترون إلا في موسم التخفيض، أو أن قبول التوبة والدعوة ليلة القدر، حظ كاليانصيب يهبط على من لم يعمل من قبل ولن يعمل من بعد.

فعمل المسلم عبادة مستمرة، والصدقة - فضلاً عن الزكاة - وهي من العبادات المدنية، إذا أديت في غير رمضان لمن ألت به حاجة ماسة في شهر ما، أفضل من الصدقة في رمضان، إذا كانت حاجة المحتاج في رمضان غير ماسة، والعبادة المدنية في مجال إداري أو فني، إذا كانت من الضروريات، فريضة اجتماعية، أجرها في رمضان كأجرها في أي شهر آخر، وأجر المسلم على عمله متى كان خالصاً مصيباً متحقق دون شك، فإله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

20 - أركان الصوم وأركان الحياة:

هذه الغفلة عن مقاصد الشريعة استدرجت الناس إلى التقليل من قيمة العبادات المدنية التي تنمو بها المجتمعات، فحصروا الدين في شعائر العبادات الروحية، ثم عادوا مرة أخرى لتركيز العبادة الشعائرية في شهر رمضان، وكأنه لا هم للمسلم إلا هذا الشأن. إن الآيات والأحاديث لا يمكن فهمها، دون إدراك وظيفتها، ولا فهم وظيفتها دون إدراك مقاصد الشريعة العامة منها، ولا يمكن إدراك المقاصد دون معرفة كليات الدين، ولا يمكن فهم الكليات إلا بإدراك أن الإسلام برنامج حضاري شامل، فإذا وعى الفقيه والواعظ هذه المقدمات والأسس، أمكن أن يضع نصوص الشريعة في مدارها، لأنها إنما تكون صحيحة المفهوم، إذا كانت تدور حول قطبها، ولا يصح جمع ولا ترجيح دون هذا المنهج.

ودون ذلك يصبح انتقاء النصوص عزلاً لها عن سياقها ولياً لأعناقها، وهذا إخلال فظيع بالدين يهون على الناس المعاصي الروحية والمدنية، لأن حركة التقدم والبناء والنهوض ستفشل، ولأن الأخلاق الفضلى ستضمحل، ما دما نعتبر الإخلال بالواجبات المدنية أسرية واجتماعية، وإدارية وإنسانية، من الأمور التي تغفر بين الرضائين.

إن مدار حياة المجتمع يدور على قطب التوازن، فالتوازن هو ضابط التوقيت الذي يحدد عدد الساعات أهي قبل الظهر أم بعده. وهذا يدل على أن مقاصد الدين يمكن أن تضرب بنصوصه، وأن كليات الشريعة يمكن أن تضرب بجزئياتها، ما لم يكن المستشهد بالنصوص، مستحضراً الوحدة العضوية في الشريعة.

إن الذي نمارسه نحن انتهاك فظيع لمعنى الصوم، إذ إننا نقسم الزمن إلى موسم طاعة وعبادة والتزام، وموسم تساهل وتقصير وإخلال. والالتزام بالوحدة العضوية للدين، هو أساس سعادة الدنيا والآخرة والتقدم الروحي والمدني.

إن الذي نمارسه سلوك فوضوي يخل بالفرائض الدينية، في المجال الفردي والأسري والاجتماعي، لأن السلوك النموذجي في الإسلام هو الاعتدال، ولذلك امتدح الرسول صلى الله عليه وسلم العمل المتواصل؛ الذي يستطيع الإنسان أن يستمر عليه، ولو كان قليلاً، إذ يقول "أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل". وكما ذكر أحد علماء النفس (عبد الرزاق الحمد): "إن الإغراق في النوافل في موسم معين عندما يعقبه... ترك التهاون بالواجبات في غيره، يدل على اضطراب في التوازن النفسي (الرياض. الثلاثاء 1419/9/18هـ).

21 - وعاظ المساجد وسوء توظيف أحاديث الترغيب والترهيب:

إن كثيراً من الناس، من العامة بل من الخواص أولاً، عندما جزعوا الدين نظروا إليه كحبات العقد المتناثرة، ولو نظموا هذه الحبات في عقد، لأدركوا أن ثمة نسقاً ونظاماً لهذه اللآلئ، يوجب أن تشكل الأجزاء صورة متناسقة، تحقق ما يسمى عند نقاد الأدب الصورة الكلية أو الوحدة العضوية أو العقد من اللؤلؤ عند الجواهري.

وقد شاعت هذه الانحرافات، على الرغم من أن علماء الأصول ولا سيما فقهاء المقاصد الشرعية حذروا منها، بل إن عالماً كبيراً كالشاطبي، وقف على هذا الموضوع، وفصل ومثل، في كتابيه (الاعتصام) و(الموافقات)، وأكد على أن الذي يأخذ الحكم من نص من النصوص،

دون أن يفرّعه على القاعدة الكلية، ويربطه بالأجزاء الأخرى، إنما هو من الذين يتبعون الشبهات، ويجنحون نحو التأويل الباطل.

ومن أجل ذلك فإن جهداً كبيراً مطلوب من علماء الدين ومثقفيه، ليفرّعوا على قواعد أصول الشريعة، ما يحى ويجدد فهم الدين، ومن الضروري الوقوف عند ثقافة الترغيب والترهيب التي أَرادها قراء المساجد ووعاظها، أسلوباً دارجاً، لدفع الناس إلى الطاعة، فأخلوا بترتيب درجات (سلم القيم) في الإسلام.

إن ثقافة المبالغة في الترغيب والترهيب، ظلت قروناً تمد المساجد والمدارس والمجالس، بقيم متناقضة، يختلط فيها الصحيح بالباطل، والأولوي بالتانوي، والمهم بغير المهم، دون أن تهتم تلك الثقافة بتقديم الإسلام مشروعاً للتقدم الروحي والمدني معاً، ينتج السعادة في الدنيا والآخرة معاً، حتى ينتشل المسلمين من ما هم عليه من تأخر. ومن يقرأ في بعض كتب الثقافة الدينية الشائعة، من هنات غير هينات كـ (الترغيب والترهيب) و(الكبائر) للذهبي؛ يدرك أنه لا بد إن شئنا أن نعلو بالإسلام من تصحيح مفهومات دينية شائعة، من أجل تربية إنسان مسلم سوي الشخصية.

أحاديث الترغيب والترهيب؛ نظر إليها فقهاء الأصول نظرة كلية، فقالوا: إن أحكامها لا تؤخذ من منطوقها الحرفي، وعرفوا حديث الترغيب بأنه كل حديث يرتب ثواباً عظيماً على عمل أمر يسير، وعرفوا حديث الترهيب بأنه كل حديث يرتب عقاباً كبيراً على ترك أمر هين، وغفل كثير من العوام بل والخواص أحياناً عن إدراك هذه القاعدة، وترك التذكير بها دفع الناس إلى الجهل بالأولويات، وإهمال فقه الموازنات، وتجزئة الدين إلى قطع أشتات.

22 - النموذج الأعلى للصائمين:

إن شهر الصوم محطة في حياة الأفراد والأمة، تعباً فيه قوى الإيمان الفعال الروحية، لتصحح سلوك الأفراد والجماعات، وهو مدرسة لتجديد الإيمان والعمل الصالح، وشحن للموَدَّ كي ينتج الإرادة الخيرة، للتخلي بكريم الصفات، لاستئناف عمل أقوى وأفضل. إذن فإن موسم رمضان، هو موسم امتحان، والنتائج تظهر بعد العيد، فالذي يقبل الله سعيه هو الذي ينجح، أي ينتقل من صف أدنى إلى صف أعلى، أي أنه يرى نتيجة السعي في عالم الشهادة، قبل عالم الغيب، فإن ترك المخطئ فاحشة أو جريمة، ظاهرة أو باطنة، كان يزاولها قبل رمضان فهذا هو المقبول، فليسأل كل منا نفسه، ذكراً أم أنثى، عالماً أم متعلماً، رئيساً أم مرءوساً. هل أقام صلاة كان عنها ساهياً، هل أتى زكاة كان بها شحيحاً؟ هل ترك فاحشة كان لها أليفاً؟ هل ترك مسكرات كان بها مغرماً؟ هل ترك الربا وأكل أموال الناس بالباطل؟ هل طبَّق القانون المشروع؟ هل ترك دفع الرشوة أو أخذها؟ هل عدل وأنصف الآخرين. هل ترك الكبرياء والتعالي؟ هل ترك الحسد والغيبة والنميمة؟ هل ترك سرقة وقت العمل من أوله أو من آخره؟ أو من كفه أو من كيفه؟ هل ترك عمله الذي يضر بالمجتمع والأمة؟ هل ترك الظلم والبغي والفساد في الأرض؟ هل أدى دوره الأسري والاجتماعي؟ إن كان كذلك فقد نجح بامتياز، وهو جدير بمغفرة الله.

هؤلاء هم الذين انشحنوا بهذه الطاقة الإيمانية، هؤلاء هم الذين تربوا في رمضان، وتعلموا من الجوع والعطش، ما يقوي الإرادة الفعالة، للخير والنجاح، وهم الذين وجدوا في رمضان جواً روحانياً،

يساعدهم على التخلص من المعاصي الروحية والمدنية ظاهرة وباطنة، فتابوا لله توبة نصوحاً، وعلامة توبتهم أنهم استأنفوا حياة مستقيمة لا عوج فيها، إن استمرار الناس على الطاعات، وتخلصهم من المعاصي برهان محسوس ملموس، على أنهم اجتازوا الامتحان، وأن الله قد حباهم بالقبول، لأن رمضان أحدث انقلاباً نفسياً فيهم، فقوم سلوكهم الظاهر والباطن.

هؤلاء هم الذين يجدون في الصوم لذة العبادة، ويجدون في السحور بركة، وفي الإفطار راحة روحية، وهم الذين تفتح لهم أبواب الجنان، وتغلق دونهم أبواب النيران، وتلتقاهم الملائكة ليلة القدر بالبشرى والسلام، وتغفر ذنوبهم، وتكفر سيئاتهم، ويتجلى نور الله في أفئدتهم. وهؤلاء هم الذين تبنى بسواعدهم أحجار التقدم ورفع الأمة، ويحدون الأمة إلى التفوق والرقى، لأنهم يدركون دور العبادة المحضة في شحن الهمم نحو العبادات المدنية (غير المحضة). (أنظر أنيس الأبيض. رمضان شهر التجدد الروحي والجهادي. الحياة 11/يناير/1998م).

23 - النماذج الدنيا:

هذا هو نموذج السلوك الأعلى في الإسلام النموذج. أما السلوك الأدنى، فهو ذلك الشكلي الرتيب، الذي لم يدرك مقاصد الشريعة إدراكاً عملياً، فقد سهر صاحبه مع الطلاب، وتجشمت قاعات الامتحان، ولكنه سُجِّل في صحيفة الراسبين، لأنه تصوّر رمضان على غير حقيقته.

لأنه تعامل مع رمضان على أنه جوع في النهار، يفر منه الإنسان بالنوم والكسل والخمول، وشبع في الليل يقرنه الإنسان بالسهر حتى

الفجر، وتلاوة للقرآن باللسان لا تتجاوز الأذان، وصلاة تراويح وقيام آلية، ثم انخداع بالأمانى الكاذبة، وشعور مرضي بالاطمئنان إلى سلامة العمل، ويتبعه انطلاق بعد العيد، في الملذات والمحرمات، وإهمال للواجبات الروحية والمدنية، فردية واجتماعية.

وكان رمضان مهرجان لتخفيض الأسعار، تكون فيه الجوائز للمتسابقين، ثم ينفذ مسرح الاحتفال وقد قبض كل مشترك جائزته، واشترى كل محتاج حاجته، فما عليه بعد ذلك، لو استرخى وعصى وطغى، وما عليه لو لم يشتتر بعد ذلك شيئاً، فقد جمع زاداً يكفيه مؤونة جهد عام كامل!

هذا الإنسان ينظر إلى رمضان على أنه يخلصه من الديون القديمة، ليستأنف بعد العيد ديوناً أخرى، من الفواحش الجليلة والخفية، وكأنه المعسر الأخرق، الذي كلما سدد المتصدقون دينه في رمضان، عاد مرة أخرى إلى الإسراف على نفسه واستدان، متكلاً على كرم المعطين في رمضان.

هذا النمط من المسلمين يفهم المواسم الدينية فهماً غير شرعي، يمليه عليه الهوى والجهل معاً، وهذا النمط من السلوك من أسباب انحطاط المسلمين المدني، وهو أسوأ النماذج المسلمة:

سارت مغربة وسرت مشرقاً شتان بين مشرق ومغرب

ونمط آخر منا نحن المسلمين المقصرين، ينشط إذا نشط الناس، ويكسل إذا كسلوا، فسلكه في رمضان، من باب المحاكاة، فإن صلى الناس صلى، وإن ولى الناس ولى، فهو نموذج (الإمعة) الذي إن أحسن الناس أحسن وإن أساءوا أساء، وهذا النمط شائع في حياتنا الاجتماعية وهو نمط بعيد عن فهم معنى العبادة، فضلاً عن إدراك

معنى العبودية لله قولاً وعملاً. فكيف يمكن إذن تفسير قيامه بالواجبات، وانتهائه عن المحرمات وهو صائم مجهد، أثناء رمضان وإخلاله بالواجبات، وانتهاكه المحظورات، وهو مفطر نشيط. المسألة في حقيقتها تجسيد للشخصية الإسفنجية (الإمعة) التي يتعايش فيها الإنسان مع الناس ويضاهيهم دون إرادة جازمة.

ونمط ثالث يتجاوز سلوكه المجاراة والمحاكاة، إلى الوقوع في فخ الرياء والسمعة، وهو لم يشعر فهو حريص على الظهور في أماكن العبادة، كالترأويح والقيام، والعمرة والحج، ويستمتع بثناء الناس عليه، وهو يبحث عن مسجد فيه إمام حلو القراءة ولو كان مسجداً قصياً ليتروّح فيه أو هو يعدد مرات حجه وعمرته، وهذا نمط يقع في الشرك الخفي وهو لا يدري.

أما النمط الرابع: نمط تأصلت فيه الفواحش الظاهرة أو الباطنة، وهو يحاول الفكك منها. ويحاول أن يحقق الانقلاب النفسي والسلوكي مع كل عبادة، ولكنه يتعثّر ويكبو، ويعاني من ذلك ويصارع هواه وشيطانه، ولكنه لا يكاد يفلح، وهذا نمط حري بالوصول إلى الهدف، لأنه أول علامات الانقلاب النفسي شعور العاصي بانكساره، وإحساسه بذلّه وهوانه، وهذا النمط إذا جدد العزيمة مرة أخرى، أو شك أن يفلح، فإن لم يفلح اليوم أو شك أن يفلح غداً، ويجتاز شاطئ الأعراف، إلى سفينة الخلاص.

ترى هل يسأل كل واحد منا نفسه؟ من أي الفئات أنا؟

4 - الوحدة العضوية للشريعة

الحج والعمرة نموذجاً 23/11/26

نشرت في الحياة اللندنية 10/رمضان 1418هـ الموافق 8/يناير/1998م.

24 - وظيفة الحج:

الحج أحد أركان الإسلام، ولا يتم إدراك أنه ركن عظيم إلا من خلال إدراك وظيفته، فالإسلام شطران: عبادات روحية وعبادات مدنية وأهم العبادات الروحية الصلاة والصوم، وشهادة التوحيد. والحج من العبادات التي يختلط فيها الروحي بالمدني، من أجل ربط المسلمين أجمعين بمكان مقدس واحد، تهفو إليه قلوبهم، ويشعرون بوحدتهم الحضارية، وحين نقارن الممارسة بالمفهوم نجد إخلالاً بمقاصد العبادة، فالحج والعمرة فرضاً مرة واحدة في العمر، ووردت آثار في الحث على التكرار، ولكن كثيراً من الناس يكررون دون مراعاة الهدف المشروع من التكرار، ولا يهتمون بإدراك الوحدة العضوية للتشريع أو صورة الجسد الواحد للشريعة، الذي يؤدي بروز عضو فيه إلى شلل آخر، ولا يدركون أن الدين كالعقد من الجواهر، لكل حبة منه مكان محدد، ليكون عقداً فريداً جميلاً.

كثير من الناس ولا سيما إذا جاء رمضان، توافدوا على البيت العتيق، ليستثمروا شرف الزمان والمكان معاً، بالعمرة والصوم والتهدد وقراءة القرآن، وفي الصدقة في هذا الجو الروحاني، ولا ريب أن هذا المقصد مشروع مندوب من حيث الأصل.

الطواف في هذه الأماكن المقدسة، يشعل طاقة الإنسان ويوجهها،

بمعان جلييلة من النفع الذاتي والاجتماعي. ولكن الذي يتأمل يجد كسوفاً غير خفي، وسط هذه الصورة المشرقة، ويجد أن العبادة الفعالة، التي تضخ الطاقة في شرايين الأفراد والمجتمعات، قد تحولت عند عدد كبير من الناس، إلى عبادة شكلية خاوية، وفي ما يلي نذكر بعض الممارسات الخاطئة.

25 - عندما تؤثر النوافل الروحية على الفرائض المدنية:

معدل تكرار النوافل، ينبغي أن يرتبط بالوظيفة، فتكرار العمرة والحج، كأى نافلة من نوافل العبادة الأخرى، له وظيفة، والحديث عن الوظيفة يعني إدراك أن الحج جزء من العبادة، جزء لا يمكن فصله عن علاقته، في المخطط الهندسي للشريعة، والملاحظات التالية تتناول الذين جعلوا هذه العبادة عادة موسمية، حتى كادوا أن يمارسوها كل عام، بدون ربطها بنتائجها، وبدون مراعاة فقه الموازنات والأولويات.

إن من الأمور اللافتة أن تجد إمام المسجد أو مؤذنه، وهما قد يأخذان أجراً على الأذان والإقامة، يتركان مسجدهما، لكي يعتمرا في رمضان، دون أن يشعرا بالتقصير أو تأنيب الضمير.

بل إنك تجد الإداري يخل بواجبه، ويهمل الفرائض الإدارية الاجتماعية، التي هي من المقاصد الأساسية للشريعة، وينطلق لكي يعتمر في رمضان، وهذه ممارسة توجي بغفلة عن مفهوم العبادة، وبسلوك غافل عن الترابط بين العبادة الروحية والعبادة المدنية، وهكذا ينفلت الموظف عن عمله الذي يأخذ أجره كاملاً عليه في نهاية الشهر، ليتفرغ للطاعة الروحية والعبادة الفردية، مستأذناً أو غير مستأذن. ومن يملك أن يأذن للناس، لكي يعطلوا مصالح المجتمع؟ حتى لو كان رئيس

الدولة نفسه، حتى استقر عند كثير من الناس، مفهوم غريب يستنتج من كون شهر رمضان شهر عبادة روحية أخروية يعني أنه ليس شهر عمل مدني دنيوي. وكأن العمل الفني والصناعي والإداري ليس عبادة.

وهذا الذي يكثر من نوافل الحج والعمرة، ينسى في غمرة شغفه بالعبادة الروحية، أنه يسهم في غلاء الأسعار، وارتفاع الكراء، وضيق الشوارع، وضيق الباحات، فضلاً عن ما يتصل بالنظافة، وهو بذلك يضايق قوماً يحجون أول مرة أو يعتمرون أول مرة، وما مثله إلا كمثل من جلس في صدر المسجد ينتفل، فاضطر من أرادوا صلاة الفريضة إلى أن يصلوا في العراء. وهو بذلك يمارس أنانية وأثرة وحباً للذات، يمنعانه من رؤية حقوق الآخرين، فضلاً عن مقاربة فضائل الإيثار، فضلاً عن إدراك روح العبادة.

ثم إن كثيراً من هؤلاء المعتمرين، يقضون بضعة أيام بل بضعة أسابيع، وقد خلفوا أهليهم بدون راع، ففرطوا في رعاية حقوق واجبة، من أجل أداء نوافل مستحبة.

ويتكاثر الناس في مكان محدود وزمان معين، فإذا بهم يتزاحمون ويتعاركون، ويدفع بعضهم بعضاً، ويحدث خلال ذلك مظالم وجرائم وفواحش، ويطأ بعضهم بعضاً، وربما قتل الضعيف بأرجل الأقوياء، ألا تنقل هذه المآسي (استحباب) العمرة والحج إذا كانا نوافلتين إلى الحكم بـ (الكراهية)، إن لم تنقل الحكم إلى (التحريم) أحياناً. لأن للتنافس على الطاعة ضوابط وشرائط، متى غفل عنها المتنفذ، وقع في المكروهات والمحرمات، لأنه أخذ الاستحباب على ظاهره، ولم يدرك فقه تقديم درء المفسد العامة أو الكبرى على جلب المصالح الخاصة أو الصغرى.

26 - علم الاقتصاد، ألا يقيّم نوافل العمرة والحج:

مليونان كان عدد الذين صلوا آخر جمعة من رمضان، في المسجد الحرام، سنة 1417هـ، ومليونان أيضاً كان عدد الذين صلوا ليلة السابع والعشرين من رمضان.

ألا يجوز لنا إدخال علم الاقتصاد في هذه العبادة؟ فلنفترض أن عدد الذين يسافرون إلى مكة، وقيمون فيها بضعة أيام، مكررين العمرة كرة خامسة أو عاشرة؛ يبلغ خمسة ملايين معتمر سنوياً، وهذا افتراض على الحد الأدنى، فلنفترض أن كلاً منهم مكث بضعة أيام، لا بضعة أسابيع، ولنفترض أن معدل مصروف بضعة الأيام، ثلاث مئة دولار، فكم دولار أنفقوا؟

5.000000 متعمر × 300 دولار = (بليون دولار ونصف بليون)!

ترى لو أن هذا المال الكثير روعيت فيه الأوليات، كم نفع للمسلمين فيه؟ كم مسجد سيشاد في حي أهل بالسكان لا مساجد فيه؟ كم مصنع سيقام؟ كم بئر للشرب سيحفر؟ كم مزرعة ستنتصلح؟ وكم منزل سيعمر؟ وكم مستشفى سيقام؟ وكم عار سيكسى؟ وكم مدين سينقذ؟ وكم مريض سيعالج؟ وكم يتيم سيكفل؟ وكم جائع سيطعم؟ وكم شاب وشابة سينتزوجان؟ وكم معهد للمتفوقين سيشاد؟ وكم دار للمعوقين ستبنى؟ وكم قناة فضائية ستبث؟ وكم صحيفة ستنتشر؟ كم مؤسسة علمية أو تعليمية ستنشأ؟ وكم وسيلة تقنية للاتصال والإعلام والتربية ستنشأ؟ كم أبناء شهيد أو مجاهد سيرعون؟ كم للدين إذن من معلم سيرفع؟ ولا سيما في فلسطين، وفي البلاد الفقيرة وبلاد الأقليات الإسلامية، كالבوسنة وكوسوفو وفي ألبانيا، وفي الصومال، وفي باكستان والهند والفلبين، وسائر بلاد المسلمين عامة، والعالم كافة،

أليست هذه الأسئلة جديرة بالإجابة من العوام والخواص؟
إن هذا نموذج على الإخلال بوظيفة العبادة، وترك ملاحظة الأولويات، فنظام الأولويات يرتب سلم القيم ترتيباً عملياً، حسب الحاجة والضرورة، فإذا كان أمام الموسر فقيران: أحدهما مريض والثاني غير مريض، فالمريض أولى. وإذا كان لدى الإنسان فضل من جهد أو مال، يمكن أن يقوم فيه بنافلة من نوافل العبادة الروحية، يعود نفعها عليه وحده، ويمكن أن يقوم فيه بعبادة مادية أو روحية يعم نفعها غيره، فالعبادة التي يستفيد منها الآخرون أولى.

ومن أجل هذا فإن الأولى بهذا المتفل الحاج أو المعتمر أن يقدم ما لديه من مال، في بناء المرافق التي يحتاجها الناس. ولذلك أكد كثير من العلماء، على أن النوافل التي يتعدى نفعها إلى الآخرين، خير من النوافل التي يقتصر نفعها على الفرد، كالإمام أحمد وابن القيم وابن تيمية، أكدوا أن نوافل الإصلاح بين الناس، والبر بالوالدين وصلة الأرحام، وكفالة المحتاجين ونصرة المظلومين، وخلافة المجاهدين في أهلهم وذويهم، والعمل في الدعوة إلى الله وفي الدفاع عن الدين، خير من قراءة القرآن وقيام الليل، والاعتكاف والتفرغ للعبادة، والتسبيح والتكبير، ونحوها من النوافل.

27 - كل عمل ينفع الأمة فهو من العبادة:

الدين نظام يتكون من حلقات تتكامل ولا يغني بعضها عن بعض، وليس محصوراً بالصلوات والدعوات، وليس مجرد عبادة روحية منفك ارتباطها بالعبادات المدنية ولا فردية، معزولة عن الفاعلية الاجتماعية، في خضم حركة الحياة والأحياء. فالزاهد والعاقد الحقيقي

هو من فهم أسرار التشريع، فأدى العبادات الروحية والمدنية، بتوازن وتكامل وشمول، ولم يفسر الدين على هواه.

والعبادة لا تنحصر بالمجالات الروحية، كما قال ابن تيمية في رسالة (العبودية)، فهي "اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة". والأعمال الروحية والمدنية معاً، هي من الأعمال الدنيوية الأخروية، وكلتاها مصراعان لباب من أبواب دخول الجنة، وسبيلان من سبل التقرب إلى الله، فالزارع في حقله، والعامل في مصنعه، والتاجر في متجره، والموظف في مكتبه، والباحث في معمله، والطبيب في عيادته، والمهندس في مختبره، والسائق فوق مركبته، والكناس بمكنسته، وكل ذي حرفة في حرفته، إنما يمارسون عملاً يمكن أن يتعبدوا الله فيه.

لأن عبادة الله هي التوجه إليه، بكل خفقة ضمير، وبكل طرفة عين، وبكل كلمة لسان، وبكل حركة عضو، وبكل خطوة رجل، وبكل ريشة قلم، ما دام المسلم قد توجه بها إلى الله، وأصاب فيها مصلحة الأمة. وهذا المعنى للعبادة لخصته الآية الكريمة ﴿يا أيها الذين آمنوا: اركعوا واسجدوا، واعبدوا ربكم، وافعلوا الخير، لعلكم تفلحون﴾. فعلى المؤمن أن يدرك ذلك ملبياً النداء قل: ﴿إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾.

لم يقل الله إن الأعمال الروحية - التي نقصر مسمى الدين عليها - هي التي لله، وما عداها من أعمال مدنية، نسميها دنيوية، ليست داخلية في متن العبادة، أو إنها كالحواشي على الكتاب، توضع عند الحاجة.

يقول الله: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ آية كريمة يسيء كثير من الناس فهمها، ويظن أن معناها، (وما خلقتهم إلا ليصلون

ويحجون ويعتصرون، ويصومون ويعتكفون ويتهدون). لا.. ليس هذا المعنى هو المقصود وحده، لو كان ذلك مقصوداً لكان الإسلام رهبانية كنسية، لكن العبادة في الإسلام شاملة، لأن الإسلام لم يفصل مفهوم التقدم الروحي، عن التقدم المدني، فالزراع والصناع يتعبدون الله بصناعتهم وزراعتهم، والقضاة والمدراء يتعبدون الله بقضاء أمور الناس، والأطباء والمهندسون يتعبدون، والعمال والحرفيون يتعبدون الله بحرفهم، حين يخلصون لله في أعمالهم ويتقنونها.

28 - ما بين أركان الصلاة والحياة من الصلات:

ومن أبواب التعبد أيضاً عادات الإنسان البيولوجية والفيزيولوجية والنفسية، من أكل وشرب، ولبس وسكن وتعاشر الأزواج؛ فهي تصبح عبادات إذا احتسب فيها المرء، وأراد أن يتقوى بها على الطاعة، سواء أكانت من الضروريات أم الثانويات والكماليات، والعادات والأعراف الاجتماعية تصبح عبادات، من زواج وتعايش وتزاور وتراحم، وإدارة واقتصاد وسياسة، إذا أراد بها الناس أن يكونوا أمة خير وعز وصلاح، واحتسبوا ذلك لله. فإذا أراد الناس بالعادات البيولوجية أو النفسية أو الاجتماعية، شيئاً من التكاثر والتفاخر أو الرياء والمباهاة أو الإفساد والضرر، فقد خرجت كلها عن إطار العبادات إلى إطار المعاصي.

وتقرير مثل هذه المسألة لا يحتاج إلى كثرة علم، فالمسلمون ما اختلفوا، وما جهلوا الشريعة، إلا عندما كثرت فيهم العلم النظري، وقلَّ العلم العملي، كأبي قوم يمرون بفترة الهبوط من الأقوام الذين "ما اختلفوا؛ إلا من بعد ما جاءهم العلم". والعلم النظري الذي لا يرتبط

بحلول صحيحة عملية للإنسان؛ إنما هو مثل الخبرة الطويلة، للفني أو الحرفي أو الإداري، إذا كانت خبرة سلبية، قد يترشح على أساسها للوظيفة، ولكن المتخرج الجديد الذي لم يغرق في هذه الخبرة السلبية أنجح وأصلح.

العقيدة الإسلامية شطران: عبادات روحية وعبادات مدنية.

فلننظر نظرة سريعة إلى المعجم اللفظي والمعنوي، لكلمات معدودة، في القرآن الكريم، كـ (العبادة) و(التقوى) و(العمل الصالح) والاستخلاف والاستعمار، ليتبين لنا هذا المعنى الشامل، بوضوح لا يحتاج إلى تفسير، وبصراحة لا تحتاج إلى تخمين.

فالعبادة إذن تشمل كل عمل ذهني أو يدوي أو آلي أو تقني أو مهني أو فني أو علمي أو أدبي، حتى الكناس الذي يقم الزبالة فيستغني عن الشخاذة ويحتسب، ويخلص في عمله. بذلك يصبح عمله عبادة من العبادات، وهذا معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم "إماطة الأذى عن الطريق صدقة"، ومعنى قوله أيضاً "رأيت رجلاً يتقلب في الجنة، في شجرة قطعها من ظهر الطريق، كانت تؤذي المسلمين" (رواه مسلم).

ولذلك جاء في الأحاديث النبوية أن العمل المدني، عمل في سبيل الله فالإنسان الواعي البصير، يستطيع أن يجعل من عمله المادي العادي، جهاداً مدنياً في سبيل الله إذا كان عمله مشروعاً، وصحبته النية الصالحة، وأداه بائقان وإحسان، فقد روى الطبراني أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ على رجل؛ وقد ظهر له نشاط وجلد، فقال الصحابة: يا رسول الله! لو كان هذا في سبيل الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن كان خرج على ولده صغاراً؛ فهو في سبيل الله، وإن كان خرج على نفسه يعفها؛ فهو في سبيل الله وإن كان

خرج يسعى رياءً ومفاخرة؛ فهو في سبيل الشيطان".
كل شيء إذن في حياة المسلم ينحصر في أمرين: إما عبادة الله وطاعة له، وإما عبادة للشيطان ومعصية الله، ولا ثالث لهذين الأمرين، حتى الأمور المباحة في اصطلاح الفقهاء، هي باعتبار آخر ليست مباحة مجردة من التحريم أو الإيجاب أو الكراهية، بل تدخل ضمن غاياتها، وغرض الإنسان منها، فإن كانت تعين على الطاعة فهي عبادة، واجبة أو مستحبة، ما دامت في نفسها حلالاً، وإن أعانت على المعصية فهي معصية محرمة أو مكروهة.

29 - لماذا ضعف المؤمن وقوي الكافر؟

إن ضعف المؤمن وقوة الفاجر، التي نشكو منها في أدبياتنا الدينية؛ ليس قضية غيبية ولا قدراً إلهياً جبرياً حتمياً ليس منه مناص، بل قدر إنساني اختياري، له صلة بكسبنا نحن المسلمين وعملنا، واحتجاجنا بالقدر عندما نخمل أو نكسل، إنما هو نتيجة ضباب في المفاهيم، يجسد غفلة عن فهم آيات الله الكونية والاجتماعية وضرب لها بآياته القرآنية، إنه عته في العيون أو غشاوة عن رؤية السنن، أدت إلى تحول المفاهيم الفعالة إلى مفاهيم خاملة، وأدى ذلك إلى تكوين ثقافة خاملة، وأنتجت الثقافة الخاملة خمولاً في القيم الاجتماعية، فأصبح الملتزم بعيداً عن خوض غمار الحياة المدنية، وأدى ذلك إلى قلة وندرة في نموذج (القوي الأمين). وقد كان عمر رضي الله عنه يشكو من ضعف الأمين وقوة الخائن، ولكن شكواه لها سبب غير ما نحن بصدد، فشكوى عمر كانت بسبب ضخامة المسؤوليات التي نتجت عن كثرة الداخلين في الإسلام، وحاجة الدولة

إلى كم ضخم من الكوادر الإدارية، وقد كان السابقون الذين تدربوا في مدرسة النبوة عدداً قليلاً، لا يسد احتياج الدولة، أما الذي نشكو منه اليوم فهو بسبب خمول منهج التعليم الديني.

هذا الضعف إذن نتيجة كسبية إرادية، وليس أمراً جبرياً فطر الله الناس عليه، فما «ظهر الفساد في البر والبحر»؛ إلا «بما كسبت أيدي الناس» (الروم: 41)، والله يذكرنا كلما غفلنا: لا تحتجوا بالقدر علي، فتكونوا كالمشركين، الذين ينكرون تبعثهم، فيقولون: «لو شاء الله ما أشركنا» ف «ما أصابكم من مصيبة، فبما كسبت أيديكم» (الشورى 30).

متى حل الدمار بالأمة؟ عندما جهل الأفراد أن التزقي المدني شطر العقيدة الثاني وأن خدمة الناس عبادة، وأن العمل في الورشة والمصنع والمعمل عبادة، وأن الإبداع الإداري حسنى وزيادة، وأن النجاح التجاري تفوق في العبادة، وأن النجاح التربوي والإعلامي جهاد، وأن العمل في الطب والمجالات التقنية والعلوم الطبيعية، وسائر العلوم والفنون المشروعة عبادة وأن العمل في مجال جمعيات حقوق الإنسان جهاد مدني أكبر وأنه أولى وأكثر أجراً من التوسع والتخصص في دراسة العلوم الدينية، إذا الناس إليه أحوج، وأن الإبداع في كل مجال يحقق استقلال البلاد الاقتصادي جهاد، وأن الإبداع في كل مجال يرفع هامه الأمة جهاد.

عندما حصرنا عبادتنا بالشق الروحي؛ دار المولد بدون أن يضخ ماءً كثيراً يتناسب مع دورانه، فشكونا من ضعف المؤمن وقوة الفاجر، ثم تعودنا على أن لا نربط بين دوران المحرك وسرعة

السيارة، واعتبرنا أن الربط بينهما ليس وظيفتاً، فظننا أن الدين يقول: عليكم أن تعملوا وليس عليكم إدراك النجاح، وظننا أن نية المؤمن خير من عمله (اعتماداً على حديث ضعيف)، لا يصح معناه، واعتبرنا أن صالح النية يغني عن صالح العمل فتدخل جهاز المناعة الاجتماعية، فأسهلنا في إنتاج قوة المستعمر أيضاً، فشكونا من قوة الكافر.

﴿ألم يأن للذين آمنوا؛ أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾؛ ويعودوا إلى فهم كتاب سؤدهم، في الدنيا والآخرة، كي يدركوا أن الإسلام بصورته الحقيقية المتوازنة المتكاملة، جهاز تشغيل، لطاقت الأفراد والمجتمعات الروحية والمدنية، يشبه الآلة أو المولد، وأن كل قطعة منها تقوم بدور، وأن أهميتها وقيمتها نابعة من وظيفتها، وإن لا فلن نقيم حضارة، وسنظل مستغلين مستعمرين، فالحضارة لا تبنى إلا بالترقي المدني في كل مجالات الحياة.

30 - هل تعلق أحكام الشريعة؟

ما هو إذن دور العبادة الروحية؟ قد يقول بعض الناس: إن العبادة في الإسلام، إنما تقيم بنتائجها الروحية فحسب، وهي الأطمئنان النفسي، أو شعور المرء بالرضا لا بالعائد المدني، فلا ينبغي أن نحسب العمرة والحج حساباً مادياً، لأن فيهما نقصاً في المال، وزيادة في صلاح البال والحال. وهما مثل الزكاة إذن، تنقص الأموال، وتزيد الإيمان. وفي هذا الاعتراض مسائل:

الأولى: يتوهم بعض الناس أن الأحكام لا تعلق، وهذا توهم مخالف لنص التنزيل، الذي يقرن الأمر بالعبادة الروحية فضلاً عن

المدنية، بذكر مصالحها وفوائدها على الأمة أفراداً وجماعات ودولة، فيذكر أن للحج "منافع"، ويأمر ذابحي القرابين بإطعام الجوعى: "وأطعموا البائس الفقير"، ويذكر «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر»، فالعبادات كلها لها تعليل عام صحيح، هو مصلحة الأفراد والجماعات والدول. أما التعليل الذي فيه نظر، فهو تعليل كميّات العبادات الروحية، كتعليل المسح على ظاهر الخفين، أو تعليل كميتها كون صلاة الصبح ركعتين، وكون صلاة الظهر أربع ركعات، بل إن ابن القيم حاول أن يعلل هذه أيضاً، والتعليل المرفوض على كل حال، هو الذي لا يسلم للحكم الشرعي، إلا إذا اقتنع بفائدته، لأن المؤمن يجب عليه أن يسلم تسليماً، لكل ما أمر الله به، سواء أدرك حكمته أم لم يدركها، كما أن عليه أن ينفذه، وليس له الخيرة في ذلك.

الثانية: أن ذكر وظيفة العبادة الروحية، لا يجعلها منفصلة عن العبادة المدنية، فالروحانية عندما تصبح كياناً منفصلاً عن المدنية، فإنما هي الرهبانية، وتوهم هذا الانفصال، يفضي إلى تمزيق الوحدة العضوية للشريعة، وهذا إخلال خطير بالمنهج القرآني، في ضلاله يصرف المسلمون أموالهم وأوقاتهم، وعلومهم وأعمالهم، دون موازنة بين الجهد والجدوى، ودون موازنة بين الهدف الأدنى والأعلى، والأبعد والأولى.

وهذا أمر خطير دمر البنية الداخلية للأمة، وأدى بالأمس إلى السقوط الذي عرّض الأمة، رغم ما فيها من سمو روحي، للهيمنة الصليبية تارة والنترية تارة أخرى، وهو اليوم يشل قواهما، عن اجتياز المأزق الحضاري. ولو أن هؤلاء الملايين الذين يؤدون العبادات الروحية، أدوها حقاً لانشحنت أرواحهم بالهمة والنشاط في المجال المدني،

ولاجتازنا هذا المأزق الحضاري في نصف قرن أو ربعه.

الثالثة: أن وظيفة الزكاة والصدقة والحج تختلف عن وظيفة الصلاة والصوم، كما أشرت في بداية المقال، فوظيفة الصوم والصلاة شحن المولّد، لإنتاج طاقة ضوء أو ماء. أما الزكاة فهي الطاقة الناتجة، فهي من نتائج شحن الصلاة خاصة والعبادات الروحية عامة، ولذلك تأتي الزكاة مقترنة بالصلاة؛ أكثر من غيرها من القرآن الكريم، وهذا يدل أن إيتاء الزكاة ناتج عن إقامة الصلاة، والحج عبادة روحية مدنية، فإذا كان نافلة فلم لا يكون صرف المال وجهد البدن، وفق الأولويات.

العبادة الروحية إذن جهاز شحن للطاقة، لإنتاج الطاقة المدنية ونستطيع أن نفهم العلاقة بين الشحن والطاقة، من خلال تأمل سورة الماعون، حين تقرن البخل والرياء بإهمال الصلاة، لأنهما نتيجة حتمية، تترتب على السهو عن الصلاة، فتشكل صورة المسلم الرديء أو المزيف «فويل للمصلين، الذين هم عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراءون، ويمنعون الماعون».

وينبغي أن نلاحظ أن الشعور الذي نحس به عند أداء العبادة الروحية نوعان، الأول: شعور ديني طبيعي حقيقي، يحس الإنسان فيه أنه قام بما يجب عليه، فيشعر بالطمأنينة، وهذه لذة حقيقية للطاعة، لا يجد طعمها إلا من دفعه ذلك إلى الترقى المدني ومن راعى نظام الأولويات والتوازن. فوعى ثم سعى فنجح، فالتوازن بين منفعة الذات ومنفعة الجماعة، وبين العبادة الروحية، والعبادة المدنية، مسألة لا تقبل التبويض.

الثاني شعور مرضي توهمي، تهيئه العاطفة المريضة في الإنسان،

فتوهمه أنه قام بما ينبغي له، فتجد وجهه مشرقاً، وضميره مرتاحاً، لإحساسه بأنه أدى ما عليه، لكن النظرة التحليلية، تكشف أن هذا الشعور، ناتج عن توهم كاذب، يُخَيَّل للإنسان، أنه قام بالواجب، ولكنه لم يؤد من العبادة إلا شكلها، وارتياحه بسبب توهمه، لقد أفرغ شحنة الإحساس بالواجب أو شحنة الهم والقلق، ف شعر بأنه سعى ووعى، وهو في مكانه واقف، بل لعله تراجع القهقري، إنه يشبه التلميذ الذي يبكي، عندما يرسب في الامتحان، ثم يغسل وجهه، ليستأنف دور الإهمال. وهذا إن هروب رومنسي أو هروب صوفي أو رهباني. وهذه إن حال مريض يبحث عن شفاء، وليست حال إنسان طبيعي يحسن الأداء، وينبغي إن أن لا نعتبر أحوال المرضى، نموذجاً للأداء الممتاز.

31 - فقهننا وفقه الصحابة:

وقد يقول قائل إن هذه الدعوة إلى فقه الموازنات وفقه الأولويات وبناءها على تقسيم العقيدة الإسلامية شطرين: شطر الترقى الروحي وشرط الترقى المدني، تحمل في باطنها دعوة إلى التقليل من شعائر الدين الروحية، لأن تكرار الحث على هذه الشعائر، جاء في ممارسات النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، والتابعين المحسنين، وقد أكدت نصوص الدين ذلك.

وهذا تساؤل وجيه، ولكنه ينظر إلى التطبيق الذي ممارسه، على أنه الإسلام النموذجي الذي طبقه الصحابة، دون أن يلاحظ أن تركيز العلماء والفقهاء الأقدمين الإسلام في دائرة المناسك أدى إلى تأخر المسلمين، في مجال الترقى المدني، وكان هذا برهاناً على الجمود على مظاهر الدين، والعجز عن فهم أسرارها، وعدم القدرة على إنتاج

أنظمة من الأفكار والمفاهيم العملية، تؤدي إلى النجاح والتفوق المدني، هذا الفشل جر إلى الإخفاق في تطبيق الإسلام منذ قرون كثيرة، ولا سيما في مجال العدالة الاجتماعية والقضائية والفشل في التطبيق، أنتج عجزاً عن ابتكار آليات مناسبة لأحوال الناس، لا يمكن أن تتجز إلا عبر الممارسة والتجربة، لأن آليات هذا الإنتاج توقفت منذ قرون. وفي ذلك مسائل:

المسألة الأولى: حين نقرأ في سير الصحابة نجد نماذج للسابقين منهم، ونماذج لللاحقين، فنجد مستويين من السلوك، فلا نأخذ إلا بما يوافق أهواءنا، ففي الصحابة رضي الله عنهم، نموذج أبي بكر وعمر، وتاريخهما معروف، فهما في العبادة الروحية لم يختما القرآن ختمة واحدة، بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كما ذكر الذهبي، فضلاً عن أنهما لم يحفظاه (كما ذكر الذهبي) أيضاً، وما سبق أبو بكر الصحابة بكثرة صيام ولا قيام ولا نحوها من الأنشطة الروحية، كما ذكرت عائشة رضي الله عنه وعنهما، وعن صحابة رسول الله أجمعين، إنما سبقاهم بما لهم من فضل في المجال المدني، تخطيطاً للسلم والحرب، وإدارة للدولة، وإقامة للعدالة، فلماذا نترك هذا النموذج من السابقين، ونأخذ نموذج عبد الله بن عمر أو عبد الله بن عمرو، وهما على فضلها لا يحتج بهما على مثل عمر. وإن أكثرنا من الحج والعمرة، وأكثرنا من القيام والصيام، وأكثرنا من قراءة القرآن وحفظه.

المسألة الثانية: لا بد من ضبط فقه نصوص الشريعة الجزئية، بالنصوص الكلية، التي بيّنت مقاصد الشريعة وروحها وأهدافها العظمى الروحية والمدنية، فكل نص من القرآن أو الحديث؛ يأمر أو

ينهى، إنما يجب أن يفهم من خلال النسق العام أو صورة الجسد الواحد، كما عبر الشاطبي، وإذن فإن الاهتمام بشعيرة من الشعائر مرتبط بوظيفتها.

واللذة إذا لم تضبط بالشرع صارت شعوراً فردياً، غير منضبط بالمصلحة العامة، ولكل إنسان مزاج، ورغبات وهوايات، يجد في ممارستها لذة، ولكن هناك فرقاً بين لذة الهوى ولذة العبادة الحقيقية، فلذة العبادة الحقة هي أن يقوم الإنسان بالواجبات الدينية، كما أمر بها الشارع، لا كما وافق هواه.

إن الذين ينظرون إلى سلوك النبي صلى الله عليه وسلم، سيجدون التوازن، بين أداء العبادة الروحية والعبادة المدنية، ولا يمكن أن يجد الإنسان الاطمئنان الحقيقي الشرعي، بل ولا أن يكون الإنسان أو المجتمع مؤمناً حقاً، إلا بمراعاة الأمرين معاً.

32 - خطر التبرير الديني للإغراق الروحي

وقد يقول الإنسان: إن إغراقه في النوافل الروحية، لن يمنعه من أداء بعض الأعمال المدنية، وهذا الأمر ربما يكون صحيحاً عند بعض الناس، ولكنه عند الأكثرين توهم، لأن طاقة الإنسان محدودة، حسب قدرات الذهن والجسم ومساحة الوقت، فإذا أغرق في صرفها في مجال، لم يكده يستطيع أن يجد منها فضل طاقة، للمجال الآخر، فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.

طاقة المولد الكهربائي محدودة، فإذا حُمِّل فوق طاقته، ضعف توصيله، فتبددت الطاقة وتسربت، كما أن طاقة الماء المتدفقة من الأنبوب الضيق، النازلة من الخزان العالي، ترتمي بعيداً، بسبب قوة

الضغط والانحباس، فإذا كثرت الصنابير في هذا الأنبوب أو اتسع؛ ضعف التدفق. فإذا كان الإنسان يجد في الواجب والمندوب الروحي، عوناً على الفرائض المدنية، فهذا عمل شرعي صحيح. أما إذا كان يقول: أما أنا فهذا العمل الروحي هو الذي أطيق، وعلى غيري أن يقوموا بما يطيقون من أعمال مدنية - وهو يرى أكثر الناس مهملين - فهذا هروب عن العبادة المطلوبة، ولو أورد الإنسان مئة آية ومئة حديث، لأنه يفهم النصوص كما يهوى، فيضرب صريحها بمتشابهها، وكلياتها بجزئياتها، فهو فهم تأويل يفضي إلى السلبية لا فهم تفسير يفضي إلى الإيجابية، كبعض الناس الذين يحصرون أنفسهم في الجلوس في المسجد؛ كل غداة بعد صلاة الفجر، يسبحون حتى طلوع الشمس، معتمدين على حديث ضعيف، يقدر أجر ذلك بأجر حجة تامة، وحتى لو كان الحديث صحيحاً؛ لوجب فهمه ضمن النسق العام للشريعة، الذي ذكرنا الإمام الشاطبي به، لكي ندرك الوحدة العضوية للشريعة، وهذا الذي يلتزم هذا المسلك، دون أن يقوم بأعمال مدنية خيرية، يتعدى نفعها إلى الآخرين، إنما بعض الدين، وأخذ بما يهواه ويشتهي، فكأنه إذن لا يؤمن إيماناً عملياً، إلا ببعض الدين دون بعض، فلسان الحال أفصح من لسان المقال.

وهذا المسلك خطر من ناحيتين: الأولى أن شعور الإنسان بالغبطة واللذة، سيفضي به إلى الاطمئنان إلى أنه قام بدوره.

الثانية: إن إغراقه في أداء نوافل العبادة الروحية لا تشحن الإرادة في العمل المدني، لأنه استنفد طاقته المحدودة، في عمل روحي ليس له أولوية، فإذا وقف أمام العمل ذي الأولوية، من الفرائض المدنية، تهادى وترنح، وخبا وهمد. وإذا استمر الإنسان على هذه الحال؛ استمرراً

عمله، وتضاءل فيه الإحساس المدني، فتلاشى التوتر الإنتاجي، الذي ينتج التوتر الإصلاحى، وخفت دوره الاجتماعى، الذي ينبغي أن يتناسب مع مركزه الاجتماعى، فضعف عنده الاهتمام بأمور المسلمين المدنية، وتحول عبر الزمن إلى إنسان سكونى سلبى، غافل عن المعادلة الإسلامية، بين رهبان الليل وفرسان النهار.

إن الإغراق فى النوافل الروحية، ظاهرة ناتجة عن الإحباط الاجتماعى، فليس سلوكاً إسلامياً صحيحاً، وهو مؤشر على ميل خطير، تكثف فى الوجدان الشعبى الجمعى، فصك سلوكاً متخلفاً فى الممارسة، فصار كل مسلم يعمل الواجب والنوافل الروحية فرداً منعزلاً، بروح من الأنانية والأثرة، دون تناغم مدنى جماعى يقوم على الفعالية والإيثار والتعاون، وهذا أخطر ما أصاب المسلمين فى قيمهم الدينية النشيطة. إذن التوازن مطلوب، بين الذات والمجتمع، بين العبادة الروحية والمدنية.

33 - النموذجان: الفضيل وابن المبارك:

بل إن مراعاة التوازن لا تكفى أحياناً، فالأولوية هي أساس نجاح الناجحين، هذه الأولوية أدركها عبد الله بن المبارك، عندما خاطب الزاهد الفاضل الفضيل بن عياض، بالقصيدة المشهورة:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك فى العبادة تلعب
فلنتأمل عبارة (عابد) الحرمين، وعبارة "فى العبادة تلعب" هذه القصيدة قالها ابن المبارك من على صهوة جواده وهو يجاهد، وأرسلها إلى الفضيل بن عياض المتسك فى المسجد الحرام، وحمل القصيدة (ابن أبي سكينه) أحد أصحاب ابن المبارك، وعندما وصل ابن أبي سكينه إلى

مكة؛ لقي الفضيل في المسجد الحرام؛ فقرأ عليه القصيدة، فذرفت عينا الفضيل وقال: صدق أبو عبد الرحمن ونصحتني.

لقد أثر ابن المبارك الأعمال المدنية التي فيها مشقة، وكانت له مواقف مذكورة، في الجهاد الداخلي السلمي المدني (كالأمر بالمعروف والاحتساب على السلطان)، وفي الجهاد الخارجي العسكري لحماية ثغور المسلمين، من عدوان الكافرين، وموقفه صورة، تتمزج تعادلية الرقي الروحي والمدني، التي تنتج سعادة الدنيا والآخرة.

والموقف الذي نعاه ابن المبارك على الفضيل ونحوه، هو من المواقف التي شاعت في ثقافتنا الإسلامية؛ الأموية والعباسية والمملوكية، حين فهم الزهد فهماً سلبياً فردياً، يهتم بخلص الذات، ولا يهتم بخلص المجتمع، بسبب الإحباط الاجتماعي، والانكسار النفسي، الذي ألبس لبوساً دينياً، ونجد نماذج شخصياته ومواقفه في أمثال كتاب (الصفوة) لابن الجوزي صوراً ساكنة صوفية، تتمزج مفاهيم الخمول والجمود، التي نشرت القيم الاجتماعية الخاملة، وهي من الأسباب الجوهرية، لما يعانيه المسلمون منذ قرون، من هوان وتخلف، أضعف جهاز المناعة فيهم، وأنشأ فيهم روح (الاستسلام) أو قابلية الاستعباد والهوان والاستعمار.

وقصيدة عبد الله بن المبارك نموذج لمواقف مشرقة، للفقهاء والعلماء في العصر العباسي والأموي، بعضها جاء على شكل أعمال وممارسات، وبعضها جاء على شكل كلمات وعظات، كمقولة سفيان الثوري لما سأله أحد جلسائه؛ عن فضل الصف الأول فقال: "أنظر كسرتك التي تأكلها، وصل في الصف الأخير" (مختصر شعب الإيمان: 30).

وهذا المفهوم أشارت إليه عائشة رضي الله عنها، عندما سألوها عن مؤهلات الصديق التي بها ولاه المسلمون القيادة: "والله ما سبقهم أبو بكر رضي الله عنه بصلاة ولا بصيام، ولكنه إيمان وقر في قلبه".

أجل! انشحن قلبه بالعبادة الروحية، فإذا به يولد الطاقة الحرارية، وإذا بالطاقة تولد الإنجاز المدني، فتتحرك بها الأعضاء لأداء المهمات، وإذا بالشخصية المسلمة نموذجية ترتب الأولويات، وتترك فقه المدنية.

وقد أشار الدكتور حمدي شعيب، إلى أهمية الجانب المدني في العبادة، في تحليل الحديث الشريف، الذي قص قصة الثلاثة، الذين سدت عليهم الصخرة باب الكهف، فدعوا الله بصالح أعمالهم حتى انفرجت، فأولهم: كان نموذجاً في بر الوالدين، والثاني: كان نموذجاً في العفة عن الفواحش، والثالث: كان نموذجاً في التعامل المالي، ولم تكن هذه الأمور كثرة صيام ولا قيام، إنما كانت مواقف مدنية، بدا فيها الإيثار والتضحية والعزيمة، وصلابة الإرادة، وبهذه الأمور انفرجت عنهم صخرة الكهف (المجتمع الكويتية 1415/9/26هـ).

ولن تنفرج عن المسلمين صخرة التحدي الحضاري، التي وضعها التسلط الاستعماري على كهفهم، فزادت من خدرهم وكسلهم، إلا بفقهم نهوض، يجدد معاني الدين الحيوية، في النفوس والأذهان والسلوك.

من أعمال الكاتب

أ - الثقافة الدينية:

- 1 - أصول الفقه ومقاصد الشريعة بوصلة تجديد الدين.
- 2 - العقيدة الإسلامية (محاولة للصياغة خارج الأقفاس العباسية)
- 3 - الحوار أو استمرار الدوار.
- 4 - حقوق المتهم في الإسلام.
- 5 - حقوق الإنسان في الإسلام.
- 6 - المشكل والحل: الاستبداد والشورى
- 7 - المجتمع المدني سر نهوضهم وانحطاطنا
- 8 - الكلمة أم الرصاصة. نظرية المجتمع المدني في الإسلام.

ب - دواوين شعر:

- 1 - شكوى إلى القاضي
- 2 - الحجاج والحسن - من المسرح الفكري هـ
- 3 - في حضرة المنجم
- 4 - نقوش على بوابة حلة العبيد
- 5 - صرخة خادم
- 6 - خواطر تلميذ مقموع

ج - الدراسة الأدبية:

- 1 - شعر الدعوة في صدر الإسلام. جمع وتحقيق. طبع 1391هـ
- 2 - الشعر الإسلامي في صدر الإسلام طبع 1394 هـ
- 3 - الشعر في الجزيرة العربية خلال قرنين طبع 1400هـ
- 4 - الشعر في السعودية خلال 50 عاماً طبع 1407هـ
- 5 - نقد على نقد طبع 1408هـ